محمود حسين

تحدّي الآلهة

رواية

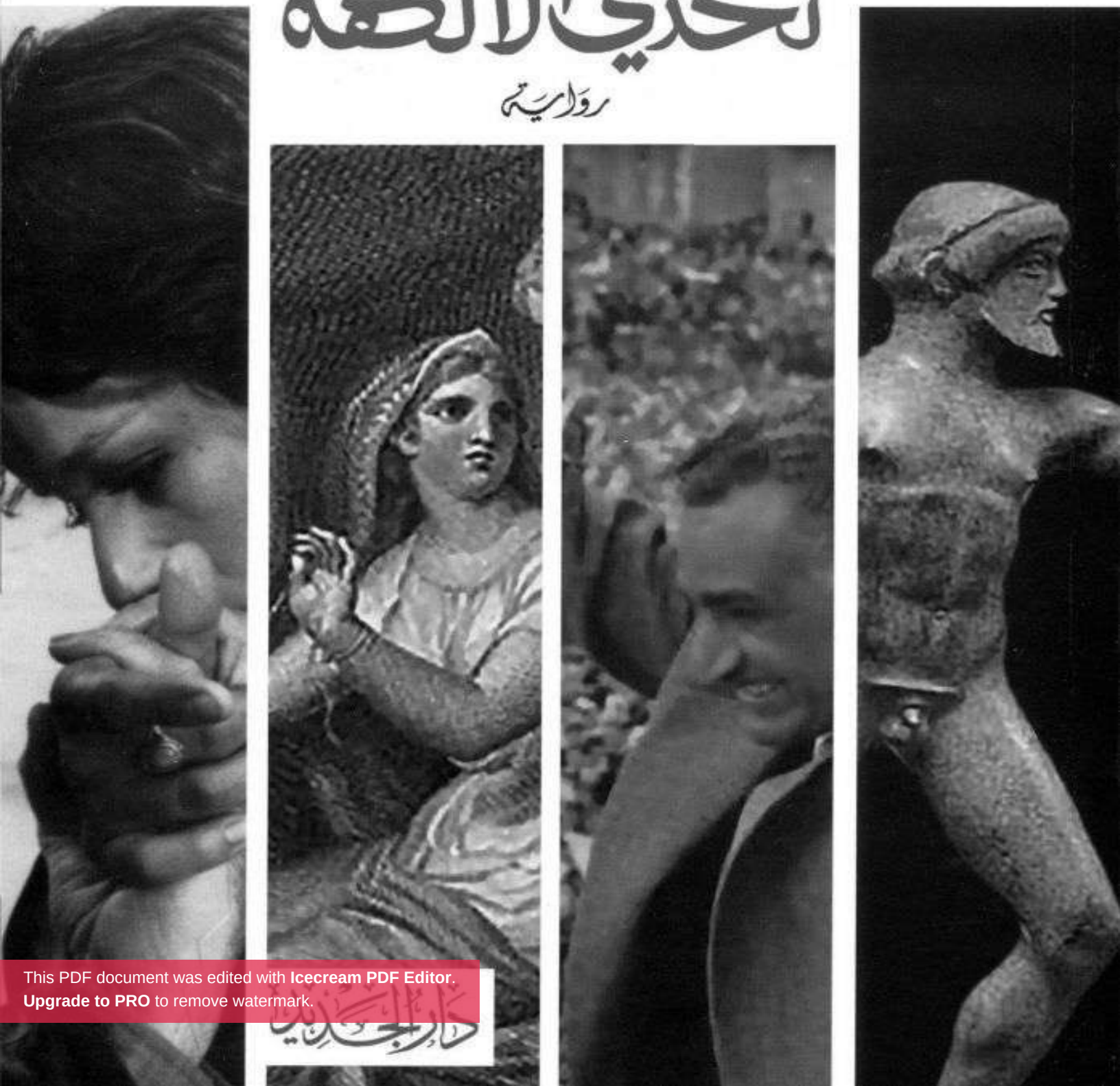

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

محمود حسين

تحدّي الآلهة

رواية

دار الجديد

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من موقع بستان الكتب

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة وللدار
الطبعة الأولى، خريـــف 2013
عنوان دار الجديد: دارة محسن سليـم،
حارة حريك، لبنان.
صنـــدوق البريـد: 5-25 الغبيري
هاتـــــف:9611553605
بيـــــروت - لبنـــــــان

ISBN: 978-9953-11-134-6

جميع الحقوق محفوظة لدار غاليمار
© Éditions Gallimard, 2016

صَدَرَ هذا الكتاب بطبعته الفرنسيّة تحت عنوان:
Tenir Tête Aux Dieux
Mahmoud Hussein
نقلها إلى العربية: أحمد علي بدوي بالتنسيق مع الكاتبين
راجع الترجمة: قلم دار الجديد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

جزيل الشكر للمؤلفين محمود حسين، عادل رفعت وب.هجت النادي، على ما تفضّلا به من مراجعة هذه الترجمة بالعربية للكتاب؛ فبفضل ال.ملاحظات التي أبدياها أمكن المترجم أن يسي.ر ب.هذه الترجمة حيث قصدا.

أحمد علي بدوي

... بدورها تتوجّه دار الجديد إلى المترجم، الأستاذ أحمد علي بدوي، بخالص الشكر والامتنان على ما بذله في خدمة هذا النصّ ترجمةً وتحريرًا. قل العَهْدُ بهما بين المترجمين.

دار الجـــديد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[1]

ظَهَر فجأةً. هناك، من بين اللا شيء. كأنّه وُلِد من رؤيتي إيّاه: كأنّه ل.م يتجَسَّد ـ في تلك الآونة وفي ذلك ال.موقع ـ إلّا لأنني ارْتَقَبْتُه في سِرِّي. مُسِنٌّ هو: ما في ذلك شكّ. يسترخي فوق ظَهْر حمارِه الراكِض ـ من تلقاء نفسه ـ صَوب الجهة ال.مقصودة. وفي كلّ ما حَوْلنا من بحر الرمال، ما من مَعْلَم: ما من مَلْمَح لحيوانٍ أو نبات، سِوَى إن ظَهَرَت ـ هنا أو هناك ـ شُجَيْرة يتيمة، لا أدري كيف!

ليس فلّاحًا فقيرًا، من رقيق الأرض؛ فعنده مَطِيَّة وفراغٌ يُمَكِّنُه من مغادرة قريت.ه للذهاب إلى «مركزٍ» مجاور، وإلّا لَ.ما تَبَدَّى لحظت.ها أمام ناظِرِيّ. ولن يطول بقاؤه، لكنْ ها هو أمامي لبضْع دقائق، وأحَدِّق إليه. إنه أوَّل من أُبْصِرُه من بشرٍ، مستثنيًا أفراد هيئة ال.مُعْتقَل...

ل.م يكن البُعْدُ وحده ما يفصلُ بيننا، بل سياجٌ من الأسلاك الشائكة أيضًا، يمْتدُّ بين بُرجَين يعتليهما حُرّاسٌ نوبيون في زيٍّ كاكِي، والبنادق مُعَلَّقة بأكتافهم. ليسوا هناك للاحتراس ممّا يأتي من الخارج، بل لمراقبة ال.مُعْتَقَلِين في الداخل. ل.م أفهم قطّ ما ال.مُفترَض من وجودهم هنا، ما ل.م يكن كَبْحَ رغبتنا الرَعْناءَ في الفرار. كنت متأكّدًا أن بنادقَهم ليست مَ.حْشُوَّة.

قارَب العصر نهايت.ه. ومن هناك، سيرجِع العجوز إلى قريت.ه: قريةٍ شبيهةٍ بجميع القُرَى ال.مصرية الواقعة بين صحراوَين، التي تتوَقَّف فيها الحياةُ على مشيئة النيل، مثل قريتي، التي أعاوِد رؤْيَت.ها، مُغْلَق العينين: بضع عشرات من مساكن ـ في صفوفٍ مُتَعَرِّجة ـ بلَوْن الطين، كأنّ.ها نبتَت من الأرض. ومن هذا الكَمِّ تَبْرُز دارٌ حقيقية أو اثنتان، ذواتا جدران من الطوب ال.مُبَيَّض بالجير. ومَسْجِد يكاد لا يُرَى، إلا بفضل مِئذنتِه. ومن كل جانب، بساط من الخضرة مُكَوَّنٌ من رُقَعٍ بلَونٍ أخضر كَثيف، تَ.بْ.رق بينها جَداولُ ماءٍ كالفِضَّة. وصِبْيةٌ يَعْدون في الدُّروب ال.مُتْربة. يَجْمَحون في لَ.هْوِهِم بما صَنَعوه من لُعَبٍ مادَّتُها القماش والورَق ال.مُقَوَّى وأسلاك الحديد. ذلك الزمن النَضِر، نسي.جه قَليلٌ من نُتَفٍ التحمَ بعضها ببعض فكان منها فردَوْس. وإن كذلك كان نقيض الفردَوْس! صبية ـ ل.م يعودوا أطفالًا ـ لا ي.جدون ما يكفي لغذائهم ولا لكسائهم؛ حُفاةً،

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بعضهم لا يكاد ما عليه من خِرَقٍ يَسْتُر عَوْرتَه. ل.م أدْرِ قطُّ كيف ظلُّوا أحياء بعد كلّ شتاء!

عمّا قريب، سيعود العجوز إلى امرأت.ه وبنيه. سيتناول وجْبَتَه في صمت، ثم يروح يضْطَجِع على حَشِيَّةٍ مَـمْدودةٍ على الأرض. ربما اشتاق إلى مضاجعة امرأت.ه، لكن هذا سيتَعَسَّر عليه، طال.ما ظلّ الأولاد مستيقظين. في العادة ل.م يُؤتَ السَكَنُ غير حجرة واحدة مسقوفة، تتكَوَّم فيها الأُسْرة كلّ.ها. وفي عراءٍ مُلاصقٍ مُسَوَّر، تُؤوَى الب.هائم، لكن حتّى إن وُجِد للأبوَيْن حجرة تَخُصُّهما، فإن الأولاد لا يُراعون حُرْمَتَها. وساعتَها خَطَر لي أنّ ممارسة الجنس ـ في تلك الأحوال ـ ستعدُّ بطولة، وإن هذا ل.م يتبادَر إلى ذهني بشأن أبَوَيّ، في أيِّ وقتٍ من الأوقات.

على أنّ الجنس لطال.ما شَغَل أحاديثنا، ومنذ الأُوليات من سنواتنا. تَـحَدَّثْنا عنه حتى قبل أن نعرف عمّا نتَحَدَّث. وتُعاوِدُني صورة عَمٍّ لي ـ كان طالبًا بالأزهر ـ ت.مَلُّك منه ت.امًا. ل.م يترك امرأة إلّا طاردَها، حتّى إن كانت متزوّجة! بلَغَني من الأقاويل التي ت.هامَس ب.ها الناس حولي، أنه تَوَرَّط في فضائح. كم من زوجٍ ـ عائدٍ مُبَكِّرًا ـ ضبَطَه في أحضان زوجت.ه. من العَجَب أنّ الشائعات ل.م تَذْكُر بالتحديد كيف تصَرَّف الأزواج ال.مخدوعون مع زائر الليل. بل اكْتَفَت بحَدَث بلوغ الزوج دارَه ـ غير مُتَوَقَّعٍ ـ وخروج عمّي بخِزْي. ولا كذلك عمّا تَبِع ذلك من تَسْوِيَة حساباتٍ بين الزوج وزوجت.ه. غير أنه ل.م يَقَعْ أيُّ طلاق. ل.م يَغِبْ احت.مال مشاجرات زوجيّة، تُواكِبُها بضع لطَماتٍ فَظّة، لكنّ الفضائح أُخْرِسَت، والزوجات أُبْقِينَ: غَلَب التسامح، بل إلى حدٍّ أن بعض الزيارات الليليّة استُؤنِفَت بعد الإعصار! كان الأجدر أن أخجل من سلوك عمّي، بَيْد أن ما رأيتُه في عيون رفاقي ـ إذ يتناقلون الأقاويل ـ غَلَّب لديَّ مشاركتَهم إعجابَهم و الت.هوين مِن شأن مَن مَلَك قدرةً كهذه على الإغواء.

كذلك وُجِدَت مباهج مشروعة، مثل.ما حال ال.مُدَرِّس وزوجت.ه؛ فمن دارهما سمع أحد رفاقي ـ ذات مساء ـ تَنَهُّدات تتكرّر بصوتٍ مرتفع، تنهّدات ممارسة الجنس. سمعتُ الأصوات يوم خميس، وصاحِبُنا تأكّد من تكرارها في أيّام الخميس التالية؛ فإذ الإجازة في اليوم التالي، أمكن للزوج على الأثر أن ينام حتّى وقتٍ متأخر، ويستعيد قواه، قبل أن يذهب إلى ال.مسجد لصلاة الجمعة.

دُعِيت إلى الحضور كمست.مع مُسْتَتِر يوم الخميس التالي. شاقتني الفكرة، ولو أنّ.ها أرْبَكَتْني بعض الشيء. رَغِبْتُ في سماع التنَهُّدات، لكن أحْرجَني أن أطّلِع على ال.مستور. إنّما ل.م يكن الاعتذار مُمْكنًا. إلتقيتُ أصدقائي في ال.موعد ال.مُحَدَّد، غير بعيد عن مسكن الزوجين، لنقْتَرِب إليه مُتلصِّصِين. جرَى كلّ شيءٍ كما توقّعنا؛ وبانت.هاء الحفل، ابْتَعَدْنا صامتِين؛ لننْفجِر ضاحكِين. ل.م يلْحَظ الآخرون أنّ ضحكتي ل.م تكن في تلقائية ضحكات.هم. ل.م أكن قد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

دَقَّقْتُ السمْع أثناء الحفل، مثل ما فعلوا هم. ما كان ببالي عندئذٍ هو الغد أو بعد الغد، حين أقابل في طريقي الزوج ـ المحسوب من معارف أبي ـ فلا أقْدِر على ملاقاته وجهًا لوجه. في تلك الليلة ارتكَبْتُ خيانةً، لم يعرفْها هو. لكن كأنه عرف!

سرعان ما سيختفي الحمار وصاحِبُه؛ ما من فرصة ستُتاح لي للقاء العجوز لاحقًا. إن قُدِّر لي يومًا أن أستَرِدَّ حُريتي. لَوَدَدْتُ أن أسأله لماذا لم يلْتَفِت مرَّة واحدة في اتِّجاهي. مع عِلْمِه أن في هذا المعسكر الذي أقامه يومًا ما جنودٌ بريطانيّون، أودِع منذ شهورٍ معتقَلون سياسيّون. ما أمكن ألّا يعرف.

برؤيته عادَني جرحٌ لم يكد يلْتَئِم: قبل عشر سنوات، وقد سلَف انتقالنا للسكن بالقاهرة، كَفَفْتُ عن ممارسة كلّ الشعائر الدينيّة. ومتى عاوَدْتُ الذهاب إلى القرية، لم أعُدْ في نظر أهلها إلا غريبًا عابرًا. أحسَسْتُ في ما يدور حولي بعتابٍ صامتٍ لكنّه مُلِحّ. هم تَوَقَّعوا أن يَروني في المسجد، على الأقلّ وقت صلاة الجمعة. في العاصمة حيث يَغْفَل الناس عن بعضهم بعضًا، لم يكن انقطاعي يَلْفِت الانتباه. أمّا في القرية، فعيون الناس مُحَمَّلَة بما يظنّونه بي.

قَصَّرْتُ في واجباتي الدينيّة، لكنني استعضْتُ عنها بأسانيد ثَوْرية! نأَيْتُ عن المحيط العائلي، ومضَيْتُ صَوب الفلاحين الفقراء: أفْقَر الفلّاحين. داوَمْت الجلوس بينهم، مُعْتَدًّا بهم كجنودٍ للثورة المقبلة. حدَّثْتُهم عن النضال في سبيل تحرير الوطن، وعن ضرورة إقصاء المحتلّ البريطانيّ. إستُقْبِلْتُ بحَذَرٍ مؤدَّب. إستمعوا إليَّ في صمْتٍ التَزموه حتى نهاية كلامي. فيما بَعْد، عرفْتُ ما كانوا يقولونه في غيابي: عَدُّوني شديدَ السذاجة، واحدًا من أولئك الذين عَزَلَتْهم المدينة عن حقائق الأمور. بل تساءل بعضهُم عمّا جئتُ لأفعله بينهم: ما هو غَرَضي بالتحديد؟ جَهَدْت لكي أتَعَرَّض لمشاكلَ تَشْغَلُهم: الجفاف، وتوزيع مياه الريّ، وسِعْر القطن، لكنْ ليس من أعماق قلبي. بقَدْر ما تحَدَّثْتُ، شعرتُ أنني أتباعَد عنهم. ما أمكن لنا أن نلْتَحِم. وفي النهاية كَفَفْتُ عن الذهاب إليهم.

اليوم بات العجوز الذي على ظَهْر حمارِه، يُمَثِّل لي بعدَم اكْتراثِه لي تلك القطيعة نفسها التي عانَيْتُها من الفلّاحين. لا يعرف هو أنني أحْلم بحياةٍ أفضل، له ولجميع فلّاحي الوطن وعُمّالِه. لا يريد أن يعرف ذلك. هو يحاذِر من هم أمثالي، الذين صاروا أغرابًا عنه، بمبالَغَتِهم في قراءة الكتب.

لَآخَذْتُه، ربما، لكنني أدْرَكْتُ معنَى عدم اكتراثه. في الحق أنّني أبادله الشعور نفسه. العالَم الذي أحلُم به من أجله، يُلَبّي أوَّلًا أمانِيَّ أنا: مصر وطنًا مسْتَقِلًّا عزيزًا، حيث الكلّ أحرارٌ في التفكير وفي فِعْل ما يريدون. ليس هذا همَّه هو. أمّا أنا، فلم أكن أتَفَهَّم معنَى حياةٍ تُقْضَى في الخَوْض في الوَحْل، وفي رعايةِ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بضع ب.هائم هزيلة، وفي ال.مُضاجَعة مساء كلّ خميس.
أخفاه برج الحراسة الأيمن عن ناظريّ. وأمامي، انْغَلَق الأفق.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[2]

ـ ما الذي جاء بكُم إلى هنا؟

كان صوْت الحارس عبد اللّه، نازلًا لتَوِّه من فوق البرج الأيسر.

سار نحوي، وتَوَقَّف على بُعد خطوتين، مُوَجِّهًا كلامَه إليّ، بينما أيُّ اتصالٍ بين ال.حُرّاس وبيننا، كان ممنوعًا.

عبد اللّه من أفراد فرقة ال.هَجّانة، تلك ال.هيئة ال.مخصوصة ال.مُكَوَّنة من وحدات متحرّكة لضَبْط الأمور، يُجَنّد عناصرُها من أعالي النوبة. دأبَت الحكومات ال.مصرية ال.متعاقبة على الاستعانة بهم في حالات الطوارئ، لقَمْع هبّات أهل الريف؛ فيَصِلون إلى موقع التَمَرُّد، ويَبْقون فيه ما يكفي من الوقت لإنجاز مهمَّتهم، ويرحلون متى فرغوا منها. ما من حديثٍ يدور بينهم وبين الأهالي. كان الأطفال على اقتناعٍ بأنهم من آكلي لحوم البشر، وخامَر الخاطر نفسه بعضَ الكبار كذلك.

سبَق لي أن شَاهدتُ.هم على ال.موقع: في قريتنا؛ حين مرَّت بنا فترة جاوَز فيها الجفافُ الحدَّ ال.معتاد، وبِتْنا نحْسبُ حسابَ كُلِّ قطْرة ماء. تَ.مُرُّ ال.مياه في جريانها من النهر بشبكةٍ من القنوات تتيح للسلطات ال.محلية توزيعها على مختلف الأراضي الزراعيّة. والأكثر ثراءً من بين ال.مُلّاك، هم دائمًا الظافِرون بأوائل الأنصبة وأفضل.ها، فلا يَبْقَى لصِغار ال.مزارعين سوى القليل من ال.ماء. ويومها، كاد ألّا يتبَقَّى ل.هم شيء. وبرغم أنّ.هم اعتادوا الظُلْمَ على مَرِّ السنين، فيومئذٍ تَمَلَّكَهم غضبٌ جامِحٌ ل.م يَعرِفُوا مثلَه قطّ؛ فاستَوْلوا على زمام الأمور وطردوا القائمين بمهمَّة التوزيع وتَوَلّوها بأنفسهم، مُتَوَخِّين شيئًا من الإنصاف.

في عجز عمدة القرية عن كَبْح ثَوَرانهم العنيف، لجأ إلى سلطات ال.مركز، فاتّصل تليفونيًّا بال.مأمور. نَزَل ال.هجّانة كالإعصار مُمتَطِين نياقهم وفي زِيّ.هم الشبيه بما يلْبسُه جنود جيوش الاحتلال فاكتسحوا كلّ ما لاقوه في طَريقهم. الأسلحةُ التي سَوّوا ب.ها الأمور، ل.م تكن بنادقَهم، بل سياطهم التي تُفَرْقع في ال.هواء بصوتٍ رهيب فتَشُقُّه بمثل ما ت.مزّقُ ظُهور ضحاياهم.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

إختفَى الأهالي من الدُروب مذعورِين، ولاذوا بديارهم. وما إن مرَّ ال.هجّانة بال.منطقة السكنيّة، إلّا اتَّ.جهوا صَوب الحقول، حيث سَبَق للعمدة أن عَيَّن ل.هم مثيري الشغب واحدًا واحدًا. هؤلاء ل.م تكن لديهم أسلحة، ول.م يُبْدوا أيَّ مقاومة؛ فكُوِّموا في شاحِناتٍ واقْتيدوا إلى ال.مركز.

إنصَرَف ال.هجّانة بالسرعة نفسها التي أتَوا ب.ها. لكنّ الحدَث ل.م يَمُرّ بسلامٍ على أيٍّ من الأطراف. الأثرياء شعرُوا بنقْص قَدْرِهم: ل.م يعودوا الآمِرِين الناهِين في موقفٍ شهد سيادة ال.هجّانة الذين ل.م يُعِيروهم أيَّ انتباه، والفقراء وإن أفْلتوا من الضَرْب، أحسُّوا بحُرقةٍ ل.ما انْكشف ل.هم من عَجْزِهم، ومن أنهم في نظر السلطة أقلُّ من لا شيء، كالعادة. ومَن هم مثلنا ليسوا أثرياء ولا فقراء، ل.م ينسوا تلك الغَضْبة التي بلغ من مباغتت.ها ووحشيت.ها أنّ الحياة توَقَّفَت بضع ساعات.

ثم عاد مثيرو الشغب إلى القرية، ووُجُوهُهم مَكْسُوَّةٌ بالعار. ل.م يرْووا شيئًا عمّا تعَرَّضوا ل.ه في قسم البوليس. ل.م يَشْغلهم سوى تفادي نظرات الناس إليهم.

وها أنا ألاقي ال.هجّانة ثانيةً، عند وصولي إلى مُعتقَل الفيّوم، في منتصف عام 1959.

لكنّ دَوْرهم اختلف: ل.م يعودوا ينطلقون من موقع إلى آخر، يَبُثُّون ـ في طريقهم ـ الرعب في كلّ مكان. لقد اسْتَقَرَّ بهم ال.مقام. ال.مُعْتقَل الذي نحن فيه، استُدْعوا إليه لتعزيز الحراسة. ل.م يكن ل.هم أن يتدَخَّلوا في شؤون النظام اليومي لل.معتقَلِين. إعتَدْنا رؤيتَهم ثابتِين في مواقعِهم فوق أبراج الحراسة، أو ماضِين جيئةً وذهابًا بحذاء الأسلاك الشائكة. بل عَرفْنا عنهم أشياء أو أخرى: ليسوا من آكلي لحوم البشر، ولديهم أسَرٌ هم مسؤولون عن رعايت.ها، لا يعودون إليها إلا في أوقاتٍ متباعدة، خلال إجازاتٍ قصيرةٍ يُصَرَّح ل.هم ب.ها.

عبد اللّه جاوَز الخمسين من عمره. بشرَتُه التي هي النموذج للبشرة النوبيّة، أشَدُّ دُكْنَةً من بشْرَة فلّاحي قريتي. ل.م يوجَد في ملامحه أيُّ مما يبعث القلق، بل ومن زاويةٍ ما، كان ل.ه مظْهَر رَبِّ أسرةٍ عاديٍّ، لكنّ.ه ل.م يُعُدْ يُزْعِبُني، وفي الوقت نفسه ل.م يكن موضع ثقتي. ما من شَكٍّ في أنه شارك في قَمْعِ تَمَرُّدات؛ ولن يتَرَدَّد في إل.هاب ظهورنا بسَوْطِه، تنفيذًا للتعليمات.

ساءلت نفسي إن كان عبد اللّه من بين من جاؤوا يومَها لرَدْع أهل قريتي. في ما أذْكُرُه عن تلك الواقعة أنّ ال.هجّانة كانوا نِحافًا رَشيقِي القَدّ، لكنّ السنين التي مَرَّت منذ ذلك الوقت، كفيلةٌ بتعليل بدانت.ه. وإلى ال.مهمّات العاديّة التي أضْحَى يُكلَّف تنفيذها يومًا بعد يوم، يرجع سبَبُ ما يَشِي به هذا الوجه من بساطة الناس العادِيِّين. ل.م يكن بعيدَ الشبَه بأحد أعمامي.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كرَّر سؤال.ه:

ـ ما الذي جاء بكُم إلى هنا؟

كان ظَهْرُه للفِناء، وعيناه كانتا مُثَبَّتَتَين على الأسلاك الشائكة، بحيث لا يمكن لأحدٍ ـ خلْفنا ـ أن يَلْحَظَ أنه يخاطِبني. ل.م أفهم معنى سؤال.ه، الذي عاد يَطْرَحُه، لل.مرَّة الثالثة:

ـ ما الذي جاء بكُم هنا؟

ـ نحن معتقَلون سياسيّون.

ـ أعرف هذا، لكن ل.ماذا؟ ل.ماذا أنت.م هنا؟

ـ لكن... أنا ل.م أخْتَر أن أجيء إلى هنا.

ـ أنت.م أبناء أُسَرٍ كريمة. رأيْتُ أنا مساجين عادِيِّين. أنت.م لست.م مثل.هم.

هَزَّ رأسه:

ـ تَبْدُون لي مُهَذَّبين. وأنت، ما أصْغَر سنَّك!

تَرَدَّدَ لحظةً، ثم أضاف، مُستَمرًّا في تَجَنُّب مواجهتي:

ـ أنت طالب؟

ـ أجل، في كُلِّيَّة الطب.

بسماعه قَوْلي، ل.م يستطع ألّا يلْتَفِتَ إليّ، ليتأكَّد أنَّني أقول الحقيقة:

ـ الطب؟

ـ أجل.

ـ ستُصْبِح طبيبًا؟

فَرَضْتُ على نفسي استخدام الجملة الشائعة:

ـ إن شاء اللّه.

ـ متى ستَخْرُج من هنا؟

ـ لا أعرف على الإطلاق. ل.م تُقَدَّم إلى ال.محاكمة. لا نقْضِي عقوبة. نحن هنا لأن الرئيس قَرَّر هذا، وهو الذي سيُقَرِّر اليومَ الذي نخْرُج فيه. هذا إن خَرَجْنا يومًا!

ـ إذن فأنت.م مثل الإخوان ال.مسل.مين؟

نطَقَ بآخر كل.مات.ه كأنه يُعْلِن انت.هاء فترة استراحة. وراح يبْتَعد عنّي ببطء. طال وقت ال.محادَثة أكثر مما ينبغي. عبد اللّه، مهمَّتُه هنا مُراقَبَتُنا، لكنّ.ه

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مُراقَب هو نفسه. إن واصل هذه الـمحادَثة غير الـمألوفة، فلَما كان سيَجُرُّ الـمتاعب عليَّ أنا فحَسْب.

قد يَظْهَر الشاويش غطّاس في أيِّ وقتٍ من الأوقات، شديدَ التَلَهُّف إلى فُرْصةٍ أخرى لـممارسة سُلْطَتِه الضئيلة. فمثلًا إن جَرُؤ أحدنا على مخالفة اللوائح، يسْتَوْقِفُه، مُقْتَرِبًا منه ببطء؛ وعِوَضًا عن الإمطارِ بالركلات والصفعات الـمحظور عليه يُطْلِق شتائم مُقْذِعة أثناء الـمُضِيِّ بالـمُذْنِب إلى الضابط النوبتجي، الذي سيُقَرِّر الجزاء. فقد اسْتَعَصى على غطّاس الاكْتِفاء بدَوْرِه كَكَلْبِ صَيْد، الذي لـم يُقَصِّر فيه.

نحن اكْتَسَبْنا حاسَّة سادسةً نستشعر بـها حضورَه قبل أن يَظهر. هذا اسْتَلْزَم من كُلٍّ منّا التركيزَ على مُداومة الانتباه، في تواصُلٍ مع أفراد الشبكة الاحتراسيّة التي كوّناها في مجموعنا، وبفَضْلِها أمكننا التَحَسُّب في جميع أنحاء الـمُعْتقَل لأدنى إنذارٍ بالخطَر. أمّا أنا، فتَعَسَّرَتْ عليَّ مقاومة الإغراء بالانفلات: بالانطلاق، رُبَّما صَوْب كَوْكبٍ آخر. هو إغراءٌ تَسَلَّط عليَّ كُلَّما وَجَدْتُ نفسي أمام الأسلاك الشائكة، وحيدًا، في مواجهة الخلاء. تلك اللحظات هي التي حَظِيتُ خلالـها بفرصة ملاقاة نادية.

في الحقّ إنّـها لـم تَكَدْ تَغِيبُ عنّي، وكأنها ماثلةٌ في خلْفيَّة الـمشْهَد، مثل ما السماء: زرقاء صافية مهما اشتدَّت الأعاصير. عشتُ لحظات غير سائر اللحظات، فيها يطغَى حضور نادية على كل ما عداه. تلك اللحظات، كانت هي التي تختارها. ما كان عليَّ إلا أن أسْتَقْبلَها. عندئذٍ تشْغَل هي كُلَّ ما هو أمامي: لا أرى ملامح وجْهها، بل أتَصَوَّرُها! وفي إهابي أسْتَشْعِر رِقَّة نظْرَتـها، وأخْتَلِج بسماع جَلْجَلة صَوْتِها، وأُحِسُّ مُلاطَفَة النسيم الذي يُرَفْرِف ببهْجَةٍ رائعة بيننا. بل من حينٍ لآخر، أكاد لا أُحِسُّ شيئًا، إلا صمتًا يَعُمُّ، صمتًا ليس فيه سواها.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[3]

غادر عبد اللّه موقعه في اليوم التالي، وفي الوقت نفسه تقريبًا اقترب منّي:

ـ بم أنت.م مُتَّهَمون؟

ـ نحن مُتَّهَمون بمحاولة قَلْب نظام الحكم بالقوة.

ـ ما معنى هذا: قَلْب النظام بالقوّة؟

ـ معناه القيام بالثورة.

ـ مثل عبد الناصر، إذن؟

ـ ما قام به عبد الناصر، ل.م يكن سوى انقلاب.

ل.م أكن أنظر إليه، لكن ل.م تَفُتْني الصعوبة التي يعانيها. الثورة هي عبد الناصر، بضبّاطه ورشّاشات.ه ومُدَرَّعات.ه. أمّا نحن؟ فحفنة من التلاميذ والطلبة وال.مُعَلِّمين، وبعض الصحافيّين. ول.م يكن أيٌّ منّا قد حمل في حيات.ه سلاحًا. ما أهوَننا!

ـ تريدون أن تَحِلّوا محلَّ عبد الناصر؟

ـ كلا. ما نريده نحن، هو أن نعيش أحرارًا، كأفراد مجت.مع، فيه نستطيع تنظيم أنفسنا بديمقراطيَّة، طُلّابًا كُنّا أو محامين أو صحافيّي.نَ، من دون أن يتدخّل البوليس السرّي...

كادَت الكل.مات تَخْذلُني، فأنا أعْلَم أنّ كلّ هذا لا يعني ل.ه شيئًا. خطرَتْ لي فكرة:

ـ أنت نوبيّ. أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ وإذن، فقد قرَّر عبد الناصر بناءَ سدٍّ عالٍ في أسوان، ليحْجِز كمّيّةً هائلةً من مياهٍ سوف تُغرِق الأراضي الواقعة خلف السَدِّ بأكمل.ها. هي أرضُكم: النوبة.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أتعرف هذا؟

طأطأ رأسه:

ـ أعرفه.

ـ سوف تُضْطَرّون للانتقال. أُسَرُكم سوف تغادر القُرَى التي وُلِدْت.م فيها.

ـ قيل لنا هذا.

ـ عبد الناصر وحده هو الذي قَرَّر ذلك. أمّا رأيُنا نحن، فهو أنّ من الواحب استشارتكم: أنّ لكم أنت.م حقّ تقرير الأمور.

عندئذٍ واجَه كلّ منّا الآخر. ولأوّل مرّة نظرْتُ إلى وجْهه ال.مُشَرَّط بخطوط غليظة، وجفنيه ال.مُثْقَلَين. أدهشني ما بدا عليه من مُكابَرة واستغراب. ل.م يستطع أن يُصَدِّق أنني عاجزٌ عن فهْم ما هو بديهيٌّ. أيُّ وزنٍ لنا نحن إزاء عبد الناصر؟ أيُّ وزنٍ لقُرَى النوبة؟ أيُّ قيمةٍ يمكن أن تكون ل.مسيرتنا ال.متواضعة، بالقياس إلى قرارات رئيس الدولة؟ لكأنّ.ه تَ.مَرُّدٌ على أمر اللّه.

أخي.رًا فَهِمْتُ معنى سؤال عبد اللّه: كانت تُحَيِّره مُشْكلة، وأمل منِّي أن أعاونه على حَلِّها: ما الذي ألْقَى بأبناء أُسَرٍ محترمة مثلنا، في هذا الجُبِّ النائي، بينما يُتيح ل.هم ما حصَّلوه من عِلمٍ وما حصَلوا عليه من شهادات بحبوحة من العيش لن يُؤتَى هو مثل.ها أبدًا؟! لَكان الأجدر بهم وقت.ها أن يكونوا في جامعات.هم أو في مكاتبهم، ويكونوا هم من يُصْدِرون الأوامر لا من يتلَقّونها. ل.م يكن باستطاعت.ه أن يفهم ما يشهدُه ـ يوميًّا ـ من فوق برجه.

مشروعُنا الثوريُّ، يعارضه هو بالحسّ البدي.هيّ ال.مُتَبَلِّد الذي لأهل البلد. هنا أيضًا أعود أعاني من سوءُ الفهم، كما عانَيْتُه من أهل قريتي. إلّا أنّ اعتراضَ عبد اللّه الذي ل.م يَكَدْ حتى ينْبس به، أطْبَق عليَّ فبَدَت لي حُجَجي جَوْفاء، وإذا خيْبة أمَلِه البادية تكشف ال.حُجُب عن أسئلة ما فتئَت تكمن بداخلي منذ اعتُقِلْتُ، من دون أن أدركها بكامل وعيي.

من نحن؟ ما الذي نُمَثِّل.ه؟ بضع مئات من ال.معارضين اليساريّي.ن ال.مُصَنَّفين بأن.هم ماركسيّون، انتُزِعوا من أسِ.رّتِ.هم وبُعْثِروا بين مختلِف ال.معتقلات إلى أجلٍ غير مسَمًّى؟ لا رَيْب في بقاء عشرات من ال.مناضلين بمنجاة من القيود، مُلاحَقين، عاجزين. مخبأٌ أمن، هو كلّ ما ينْشُده هذا وذاك. لَهو الدليل على أنّ السلطة ل.م يكن لديها ما تخشاه منّا. نحن قِطَع من الشِطرنج في مباراة بين خصمَيْن، أحدهما لاعبٌ حصيفٌ، والآخر مجموعةٌ من ال.هواة. لا يتّهمنا عبد الناصر بت.هديد نظامه، بل بأننا نستخدم عقولنا. ما يريده هو، ليس إلا أن يكْتَفي الكُلّ باتِّباع أفكاره.

على أيٍّ، ل.م يُتَحْ لي وقتٌ لتبادل ال.مزيد. فَفَجْأةً خفتَتْ الجلبةُ تلك ال.مُعتاد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سماعها عندئذٍ في فِناء الـمُعتقَل، وهو ما يكفي للتنبيه، لإعلان ظهور مفاجئ لشخصٍ، حضورهُ غير مرغوب فيه. حَوَّلْتُ نظَري من الأسلاك الشائكة إلى الداخل، وفي الطرف الآخر من الفِناء، لـمحَتُ ظِلًّا يـحْجُب بعضًا من بياض مبنى الإدارة: ظلًّا كريهًا، هو للشاويش غطّاس.

تَحَرُّكُ جُموع الـمُعتقَلِين الخارجِين لِتَرَيُّض الـمساء أقام ساترًا بيننا وبين غطّاس. لـم أدْرِ إن كان قد استنتج أننا نتبادل الحديث. لـم يُغَيِّر عبد اللّه من وضعه. خَطَوْت أنا ببطء، كي تَبْعد الـمسافة بيننا. ساد الصمت تـمامًا. تَرَقَّبت من لحظة إلى أخرى وقع يد الشاويش الغليظة على كتفي.

إخترق الصمتَ صَوْتُه، بأقرب ما يكون إلى أذنيّ:

ـ ألا تعرف أن مخاطبة الـحرّاس ممنوعة؟

إلتفَتُّ صَوبه من دون أن أتكلَّم. إنتظرْتُ أن تأتي الإجابة من عبد اللّه. هو الذي وَجَب عليه أن يعترف بأنه بدأ بمخاطبتي، لكنَّه ظل صامتًا. نظَرْتُ إليه من طرف عيني، وعلى وجهه رأيت معالـم اضطراب قارَب الذُعْر. كدْتُ أغضب منه، لكنْ للتَوِّ اعْتراني مزيـجٌ من خيبة الأمل والشفقة. لـما حَمَّلْتُه من ذنب، ولا يسمح الـموقف به. لن يرتضِي الشاويش غطّاس مجازاةَ أحد رجال الإدارة على الـملأ. لَسيتَّهمني بالدَسّ لعبد اللّه، تَـهَرُّبًا. ولَما كُنْتُ بِمُتيحٍ لـه هذا التَشَفِّي. ظلَلْتُ صامتًا.

إستدار غطّاس على عقِبيْه، ممّا يَعني أنه لـم يعد عليَّ إلّا أن أتْبَعَه.

عبَرْنا الفناء بصمتـه الـمتوَتِّر، تحت أنظار العَشَرات من حولنا الذين لـم يفهموا ما حدث، لكنني قرأتُ في الوجوه ما يدلُّ على تضامنٍ غير مُعْلَن. هم واثقون بي، يعلـمون أنّني سأصمد. بل يظُنُّ البعض أنّ من الـمستحيل أن ينال مني أيّ شيء: أنّني مُحَصَّن، وهو ما كدْتُ أظنُّه أنا نفسي، منذ تضافرت الظروف العجيبة، التي نجَوْتُ بفضلـها من التنكيل، يوم وصولنا. لكن على ما يبدو أنّ فاصل التحصين قد دنا من نهايتـه.

دَلَفْتُ خلف غطّاس إلى الـمكاتب. توجّه بخطًى سريعة إلى مكتب النقيب حمدي. طَرَق الباب ووقف في انتظار الأمر بالدخول.

هي أوّل مرّة أجتاز فيها عتبة تلك الحجرة. عندئذٍ وجدْتُني أمام النقيب الجالس خلف مكتبه، واضعًا نظّارتـه السوداء. لَكان العكس أجْدَر به، باعتبار العتَمَة الغارقة فيها حجرتـه، لكنّـه لـم يكن يخلع نظّارتـه قطّ، أمامنا على الأقل. ربما وضعها فور سماعه طَرْق بابه. بفِعْل الصمت الذي ساد بعد دخولنا، أدركْتُ أنّـه اسْتاء من تَطَفُّلنا الـمفاجئ على نظامه اليوميّ.

النقيب والشاويش، كلاهما من أبناء الـمؤسّسة نفسها: البوليس، لكنّ هذا كلّ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ما ي.جمعهما. النقيب القصير القامة، ال.ممتلئ بعض الشيء، عليه مظاهر الانت.ماء إلى كلٍّ من سلك الضبّاط وأسرة ثريَّة. وجهه دقيق ال.ملامح، وصوت.ه ناعم، وهو ذو لغة مُهذَّبة تكاد تكون لغة ال.مث.قّفين، ودائمًا مُتَعَطِّر متأنِّق، زِيُّه كُوِي بعناية.

أمّا الشاويش الفارع النحيف ـ ال.متوتّر الأعصاب ـ فمن عجب أنّ وجهه يُشابه قناعًا أُسيء تثبيت.ه. طريقت.ه الفظَّة في الكلام، هي تلك التي ل.من انْتشَل.هم العمل في البوليس من بيئة بائسة، كي يتعلّموا على عجل القراءة والكتابة والحساب. ضغينت.ه متأصِّلة. بعينين كعينَي الجرذ ـ وكأنّ التَرَقُّب مهمَّت.هما الوحيدة ـ يُنَ.قِّب عن أيِّ مُذْنِب متوارٍ.

ظَلَّ التناقض الصارخ بين الاثنين، مثار كثيرٍ من تعليقات نُزلاء ال.مُعتقَل. في الأغلب أنّ النقيب كان يشعر بنفسه نوْعًا ما أقرب إلينا منه إلى مرؤوسه. على أيِّ حال، فقد تعمَّد أن يسلك معنا سلوك من ل.ه مثل تعليمنا.

بعد هنيهةٍ بدَت لي طويلة، سأل غطّاس:

ـ ماذا فعل؟

ـ تبادَل الحديث مع عبد اللّه.

كان واضحًا أنّ النقيب لا يُراوِدُه أدنَى فضول ل.معرفة موضوع حديثي مع الحارس. داعَب ذَقْنَه بيده اليسرى، وأصابع يدهَ اليمنَى تنقر على ال.مكتب، إلى أن أصْدَر حُكْمَه:

ـ أسبوع حبس انفراديٍّ.

تحَوَّل غطّاس بنظره إليّ. وفي عينيه ما استنتجت أنّه ابت.هاج. لقد ضَيَّق علينا الخناق، أنا والنقيب. عمَل على ألّا يمْلك النقيب خيارًا غير أن ي.جازيني. حَقَّ ل.ه أن يرضَى عن نفسه. مَدَّ نحوي كفَّه كي يقتادني، عندما أوقَفَه النقيب بصوْتٍ أجَشّ:

ـ لا تضَعْ يدَك عليه!

سريعًا تراجع الشاويش. وفي عينَي الجرذ، حلَّت خيبة الأمل محلَّ الرضا. كان مُرام غطّاس أن يُثْبِت تَفَوّقَه بطريقت.ه الخاصّة: أن يُعَبِّر عنه باليد وباللسان. عنده أنّ جزاءً بلا إهانة ولا مُناكفة ولا ضجَّة، ليس جزاءً بالت.مام والكمال. أمّا عندي، فهو الجزاء حقًّا.

حتى لحظت.ها، ل.م أكن قد انفرَدْتُ بنفسي قطّ. منذ اعتقالي ـ قبل نحوِ ثمانية شهور ـ ظلَّ نظاميَ اليوميّ متوَقِّفًا على قرارات لسْتُ أنا مصْدرَها، وليس في الإمكان التَكَهُّن ب.ها، لكن هذا ظَلَّ مشترَكًا بيني وبين آخرين؛ فنحن عَشَراتٌ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

معًا في مواجهة ال.مجهول، يربط بعضنَا ببعض تواطؤٌ تلقائيٌّ يعوّض بعض الشيء عن افتقارنا إلى ما نقاوم به سجّانينا، ويُحَمِّلني أنا مسؤولية إثبات أهلِيَّ.تي: أهْلِيَّتي لفعْلِ ما يتطلّع إليه الآخرون منِّي، من دون أن تكون لديَّ فكرة واضحة عمّا يتطلّعون إليه.

لكن في تلك الزنزانة، حيث سأكون ـ في آنٍ واحد ـ معزولًا عن الآخرين وضحِيَّة بطش غطّاس وأمثال.ه، بتُّ في محنةٍ لا أستطيع تَبَيُّنَها. بغتةً خِفتُ من عجزي عن الصمود. عادت إلى ذاكرتي حكايات مختلطة عن أسْرَى: مناضلين ضد الفاشيَّة في سجون النازيَّة، وزُعَماء شيوعيّين في اليونان، عمّا اختلقوه من حِيَل للتَغَلُّب على الخوف، وعلى اليأس أو الجنون. يا ل.ها من لحظةٍ قارِسة! جَهَدْتُ أن أصْمد، مُذَكِّرًا نفسي بحقائق بديهيَّة: لسنا في مُعتقَل إبادة. أسبوعٌ من الحبس الانفراديّ ليس الطّامَّة الكبرَى. ثم إنّ الرفاق ليسوا ببعيدِين.

لكنْ ل.م أستطع إنكار اكتئاب دفين غرسَه فيَّ ذلك الحَدَث. ما ينتظرني في نهاية هذه الطُرْقة ال.مُعْتِمة، ليس مُجَرَّد أسبوعٍ أقضيه في زنزانة، تنفيذًا لحكمٍ تأْدي.بيّ، بل خطوة أخرَى في طريقٍ يزداد فيه اغترابي.

إقتادني غطّاس في صَمْتٍ ومن دون أن يلمسني، إلى مساحةٍ مغلقة يُفْضِي إليها بابٌ موارب. وسَلَّمَني لَفَّةً ب.ها حصيرة حول بطّانيَّة، هما كلّ متاعي خلال إقامتي. ثم دفعني في الظلام وصَفَق الباب خلف ظهري.

ليس للزنزانة فتحةٌ أخرَى، سوى كُوَّة ضَيِّقَة، ينفذ منها ال.هواء، وكذلك ضوء النهار، ممّا أمكَنَني ـ ساعت.ها ـ أن أمَيِّز بمشقَّةٍ معالِم ال.مكان الذي أُلقِيتُ فيه: بلاطة إسمنتِيَّة مساحت.ها نحو مترَين في ثلاثة أمتار، محاطة بجدران لا لون ل.ها، وسقفٌ منخفض: قفص.

عاودَني اليأس. سمعْتُ أنفاسي متقطِّعَة، لاهثة. جَلَسْتُ على الأرض، وظهري للحائط. سعَيْتُ إلى التركيز على تنَفُّسي.

بغتةً قطعَت الصمتَ دبْدَبَةُ أقدام تقترب من الزنزانة، مختلطة بأصوات غير واضحة الكل.مات. ل.م أعد أقْدِر على التَكَهُّن بشيء. بدأ قلبي يَدُقُّ بشدَّة.

فُتِح الباب بقرْقَعَة. وفي ضوء الطُرقة ال.مُصْفرّ، ظَهَرَت قامة الشاويش سليمان. «يكفي أنّه ليس بَشَرَّانِيَّةِ غطّاس»، هذا ما خطَر ب.بالي.

صاح ب.ي:

ـ آتيك بصُحْبة.

ثم أفْسح للآتي: محمّد.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[4]

تعارَفنا قبل ذلك بسنتين. كان يدرس في كلّية الحقوق بجامعة القاهرة، ويقيم في شُقَّة يشاركه فيها شقيقان من أبناء قريةٍ قريبة من قريتي. وحين زُرْتُهما في بداية العام الجامعي، التقَيت بمحمّد.

إعتاد ارتداء نظّارات مستديرة، وهو أوَّل ما لفَت انتباهي لنُدْرتِه ثمّ كذلك ابتسامتُه: ابتسامةٌ صادقة تضيء وجهه. دُهِشْت أنا نفسي من ملاحظتي هذا ال.مَلمَح. ل.م يكن من عادتي أن أتَفَحَّص وجوه زملائي، لكنّ ابتسامة محمد هي التي سعَت إليّ. عيناه ال.مُلْت.معتان خلف نظّارت.ه، أوْحَتا بابتسامةٍ كامِنة، حتّى حين ل.م يُعَبِّر وَجْهُه عن السرور.

غزا الصلَع رأسه مُبَكِّرًا، ما أوحَى بأنه أكبر من سِنِّه الحقيقيّة، بمثل ما جَعَلَه أحَبَّ إلى من يرَونه. ل.م أرَه يفقد أعصابه قطّ. نحن جميعًا، غَلَب علينا الاحتدادُ في مناقشاتنا. وأحيانًا بلغ بنا الأمر خصامًا دام يومًا أو يومين. إلّا هو؛ فحتّى إن هاجَمَه مُحَدِّثُه أو تَفَوَّه بألفاظٍ جارحة، تظاهَر بأنّه ل.م يسمعْ، غير آبهٍ بالشكليّات، ومُتوجّهًا على الدوام إلى صُلْب ال.موضوع.

تَ.مَيَّز عنِّي بوضعه الاجت.ماعي؛ فأبوه عمدةُ قريت.ه، يملِك أرضًا مساحت.ها نحو عشرة أفدنة. لذا أمكنه إرسال ابنه إلى الجامعة والوفاء باحتياجات.ه في العاصمة. داوَم محمد السفر، في ن.هايات الأسابيع، للقاء ذَويه، ليعود مُحَمَّلًا بما لَذَّ وطاب! فمن حمامٍ محشوّ إلى فطائر بالقِشدة. وشريكاه في السكَن ينتظران، عند عودت.ه، ال.مؤونةَ بشَهِيَّة تفوق شَهِيَّت.ه، ويُقْبلان على الآلت.هام بأكثر م.مّا يفعل هو. مُبَرِّرَين ما يفعلان بما يمكنه وحده أن يلْتَهِمَه وهو في القرية.

حدَث أن دُعِيت، ذات مساء، لل.مشاركة في الوليمة. لَبَّيت الدعوة وأنا بالغ الحَرَج. ل.م أكن بمستطيع ردَّ دعوة محمّد. بل ما مَلَكْتُ حتّى أن أدعوه إلى وجبةٍ لائقةٍ في ال.منزل. قَرَّرْت ألّا أذهب إلى أصدقائي في بداية الأسبوع، ليكونوا قد فرَغوا من التِهامِ لذائذِ الريف.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لاحظ محمد هذا، بمثل ما لاحظ أنّني، رغم حَرَجي، خصَصْت فطائر أُمِّه بالتلَذُّذ، فاحتفظ لي بنصيب منها ليُقَدِّمَها إليّ في زيارةٍ تالية. تأثَّرْت بهذه اللفتة الدالَّة على لياقة، نادرًا، ما يُبديها فتيان في سِنِّنا. بين محمد وبيني، نشأ ترابطٌ غير مُعلَن، حتى يوم وُجِدْنا فيه نحن الاثنين في الشقّة، ولا أحد سوانا. فجأةً سألني:

ـ ما بالك تُقاطِع فطائرَ أمِّي؟

أحْرجَني سؤال.ه، لكنْ ما أمكنني التَهَرُّب:

ـ ... ما في الأمر هو أنني لن أستطيع ردَّ جميلك.

ثَبَّت نظّارت.ه، كما ظلَّت ابتسامت.ه وضّاءة.

ـ بذا تُدْهِشُني. خشِيتُ إجابةً مُلْتَوِية.

ـ ل.م تدَع لي فسحةً من الوقت أدَبِّر فيها غير هذا.

كادت ابتسامت.ه تختفي؛

ـ إنّما قَصَدْتُ مجاملتك لا لَوْمَك.

ثم سدَّد إليَّ إصبع اتِّ.هام، قائلًا بمزاح:

ـ وإذن فإنّ هذا يدلُّ على أنك لست شيوعيًّا.

ـ ما الصلة بين هذا وذاك؟

ـ مُبْتغَى السوفيات ال.مشاركة، أليس كذلك؟ أن يتشارك من يملكون كلّ شيء مع من لا يملكون شيئًا.

ـ لك.نّك أنت لست شيوعيًّا، لست مُلْزَمًا مشاركة شيوعيّ.

ـ فلّاحو روسيا الأثرياء، بالتأكيد ل.م يكونوا شيوعيين، ومع ذلك أرغَمت.موهم على ال.مشاركة.

ـ هذا سوف يأتي أوانه لاحقًا، حين تكون الأُمَّة حُبْلَى بالثورة.

عندئذٍ أشْرقَت ابتسامت.ه:

ـ ولا شأن لي. اليوم أقَدِّم إليك قليلًا ممّا لديّ، لكنْ بكامل حريتي. أعرف أنك ستقول إنّ.ها صورة أخرى للظُلْم: إن اخترتك أنت، فلأنك صديقي.

ل.م أضِق بطريقت.ه في محاصرتي، بل إنها حَفَّزَتْني على شَحْذ حُجَج أدافع ب.ها عمّا أعتنقه. ذات يوم، ونحن نجوب معًا شوارع ال.مدينة، صَرَّح بأنه مستعِدٌّ لتَقَبُّل كُلِّ ما يقول به ماركس، فيما عدا نظريّت.ه في ديكتاتوريّة البروليتاريا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

شاقني التحدي. في الحق إنّ تلك النظرية ل.م تكن توافقني ت.مامًا. هنا في مصر، هي الديمقراطية ما نتطلّع إليه، لا ديكتاتورية تحلّ محل تلك التي عانَيْنا منها، لكن من العسير أن يُشْهِر ال.مرء ماركسيّت.ه ويغُضَّ النظر عن مفهوم ديكتاتوريّة البروليتاريا. شهامَتي قضَت بقبول التَحَدّي، فبدون ذلك ال.مفهوم لا يَبقَى من النقد ال.ماركسي للرأسمالية شيء.

إستطرد محمد، قائلًا:

ـ وا أسفاه! لَقُمْت ببعض التنازلات، لكن ليس بهذا الشأن.

ـ لسْتُ مُفَوَّضًا التفاوض في ديكتاتوريّة البروليتاريا.

ـ ألك أن تَذْكُر لي بأيِّ معجزة، سيمكن للبروليتاريا أن تحلَّ ال.مشاكل التي عجَزَت البشرية عن حلِّها منذ الأزل؟ عُمّالنا على سبيل ال.مثال: لقد هَبّوا مُطالبين بالخبز، وساروا في تظاهرات تُنَدِّد بالاحتلال، لكنْ أتتصَوَّرُهم يحكمون البلد؟

ـ ليس على الفور، بالطبع. ليسوا مؤهَّلِين بعدُ.

آل.مني انحباسي داخل حدود الحالة ال.مصرية، حيث يحيق بي خطر نفاد ذخيرتي. تَ.هَرَّبْتُ: شرعْتُ في استعراضٍ عامٍّ لتطَوُّر البشرية، بدءًا من ال.مشاعيّة البدائيّة حتى ال.مجتَ.مع الصناعي. تعَرَّضْتُ لآليّات الانتقال من مرحلة تاريخيّة إلى لاحقت.ها؛ إذ تُ.مَثِّل كلٌّ منها مزيدًا من التقدّم تقوم به طبقةٌ بعينها، حتّى تجيء البروليتاريا فتتَمَيَّز عن سائر الطبقات بأنها هي التي تراعي ال.مصلحة العامّة، بما أنها على عكس الطبقات الأخرَى لا تدافع عن مصالح خاصَّة.

سعِدْتُ بالتركيبة ال.مت.ماسكة التي استخلصْتُها، لكنّ محمد ل.م يكن على استعداد للتراجع:

ـ ل.ماذا الديكتاتوريّة؟ إن كانت طبقة العمّال بهذا الاختلاف عن غيرها، فلِمَ ي.جب أن تَمُرّ بالديكتاتورية مثل غيرها؟ قد تصير ديكتاتوريّت.ها أسْوَأ من كلّ ديكتاتوريّة أخرَى. أل.م تَرَ ما جرَى في الدُوَل الاشتراكية؟ لقد انكشف لنا أنّ.ها حكم الحزب الواحد وعبادة الفرد: الزعيم. وهذا ما عندنا منذ الآن، ولا يُطْرِبني.

في سيرنا اقْتَرَبْنا من سَكَنِه، حيث قطَع علينا حديثَنا ظهورُ كائنٍ بشريٍّ غير مُتَوَقَّع. وبذا ل.م يَعُدْ عليَّ أن أواصل ذلك النقاش الذي كان ل.محمد فيه الأفضليّة، إذ يَكشِفُ لي عمّا يساورني ـ أنا نفسي ـ من شكوك.

عند مدخل العمارة، وقفَت ـ تسْتند إلى الجدار ـ امرأة تَلْتَفُّ بملاءةٍ سوداء طويلة، على غرار فلّاحاتنا. بيدها اليسرَى تُمْسك من ساتر رأسها ما تَحْجُب به الجزء الأسفل من وجهها. بَدَتْ كأنها تنتظر شخصًا ما.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

برؤيت.ها، الْتَفَت محمد إليّ، قائلًا:

ـ إئذَنْ لي، لحظةً.

مضَى إليها وشَرَع في حديثٍ معها. في البداية ظَنَنْتُ أنها من نسْوَة قريت.ه. لكنْ كلّا. بدا عليه أنه يعرفها، لكنْ ل.م يكن حديثه إليها في الإطار ال.متعارَف عليه للعلاقات بين أهل الريف: كما يتَحَدَّث سيِّد إلى مَسُود. إنما كان يتباحَث معها. لا، بل يساوِمُها. بعد بُرْهة، الْتفَتَت ال.مرأة جانبًا كي تدعوه إلى النظر في الاتجاه نفسه، وهو ما كان، منه ومنّي.

على بُعد خطوات، وكأنّما بإشارة صامتة، بَرَزَ من العتَمة طَيفُ أنثَى أخرَى، في رداءٍ أسْوَد مماثل. ثم كَشَفَت وجهها. عرَضَتْه علينا كأنها تتحدّانا. هو وجه امرأة في رَيْعان الشباب، جميلة، تتَفَجَّر منها شهوانيَّة آسرة.

عادت ت.حجُب وجهها بعدما تأمَّلَه محمد، وخَطَت إلى الخلف، لِتَلُفّها العتَمَة. إستأنف محمد مباحثات.ه مع ال.مُعَلِّمة.

كثيرًا ما أتى أصدقائي بعاهرات. رأيْتُ بعضهن عند مجيئهن في ال.مساء، حين كُنْتُ أتأهَّب لل.مغادرة. ل.م تبْعَثْ فيَّ أيٌّ منهن رغبةً ما. فيهنّ زَيْفٌ وتَصَنُّع. آثَرْت الانْسِحاب، بإحساس من يُفْلِت من شَرَك.

لكنْ ل.م أرَ قط عاهرةً بمِثْل نضارة وفِتْنة تلك التي اتَّفَق محمد عليها للتلاقي ال.مُقْبِل. وأضْناني هذا. ل.م تكن مثل الأخريات، فل.ماذا تفعل فعل.هنّ؟ لَأمكنها أن تعثُر على زوج، أو حتى على عشيق.

تركهما محمد وعاد.

ـ أرأيت.ها؟

أجَبْتُه، محاولًا أن أبدو محايدًا:

ـ أجل.

ـ إنها جميلة.

ـ أجل.

حديثُه ال.مُتَقطِّع في عباراتٍ مُقْتضَبة، كان أشْبَه بلُهاث حيوانٍ يطارد أنثاه، ونظّارت.ه ال.مستديرة، يخترقها بريق عينيه ال.مسَدَّدَتَيْن اتِّ.جاهي، من دون أن يراني. ل.م يَدْرِ بما أعانيه من اضطراب. كَشَفَ لي فجأةً عن جانبٍ منه ل.م أعْهَدْه من قبل.

ـ ما إن رأيتُها، حتّى برز انتصابي. فاستشَفَّت الساحرةُ العجوز وبنت ال.هوى وضعي عن بُعد. ل.م يكن التفاوض يسيرًا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

إختفَت ال.مرأتان. ودخَلْنا العمارة. بدا ل.ه أنه اكتشف وجودي للتَوِّ.
ـ أنت ل.م تضاجِع بعدُ، حتى الآن؟
ل.م أُجِب، فاسْتطرد ونحن نصعد السُلَّم:
ـ مَوْعِدها يوم الجمعة ال.مقبل. سنحتفل بفَضِّ بكارتك.
أذهَلَت.ني الثقة التي يتحدَّث ب.ها. توقَّفتُ عن الصعود، ونظَرتُ إليه.
ـ غير واردٍ على الإطلاق أن أنضمّ إليكم.
توَقَّف بدَوره.
ـ حقًّا إنني أحْسدُك. فتاة بهذا الجمال في ال.مرّة الأولَى! أنا ل.م يكن لي مثل هذا الحظ.
ـ لن أجيء يا محمد.
ـ ل.ماذا إذن؟
ما كدْتُ أُعَدِّد الأسباب، إلا سبَقَني:
ـ النقود؟ انْسَ! أنا من سيتَكَفَّل مرَّتك الأولَى.
ـ ليس هذا فحسب. لا ترُوقني الفكرة نفسها: أن يكون للغرام ثَمَن.
ل.م يكن يسمعني، أو تظاهَر بأنّ.ه لا يسمعني ومُشيرًا بسبّابت.ه إليّ، قال:
ـ لن تجد مخلوقةً رائعةً مثل.ها تلوح بريئةً كعذراء. لا تُفْلِتْ هذه الفرصة! إنهش لحمها وعظامها! فيما بعد، سيمكنك التصالح مع ضميرك إن كان يُعَذِّبُك. ما الذي يفعل.ه مشايخنا الأجلّاء، أولئك الذين يُلْقون علينا خطبة الجمعة؟ يقطفون الثمار ال.مُحَرَّمة، ثم يُقِيمون الصلاة فتَمْحُو كلّ شيء. ألا توجَد صلاة تقام لدى الشيوعيّي.ن؟
ل.م أُحِرْ جوابًا، فقال:
ـ لو تَرَكت هذه الفرصة تفوتك، فلن أغْفِر لنفسي. أؤكِّد لك أنه لن تجد ما يُندم عليه. فيما بعد، لن يبقَى لك إلّا مذاق الاست.متاع.
ل.م يكن يعرف ما يُسَبِّبُه، بلا رَوِيَّة، من ارتباك في أعماقي.
كنت أعيش على أمل اللقاء بأميرة، جميلةٍ وذكِيَّة وثَوْرِيَّة، تُل.هِب حواسِّي وتَسلب ذهني، لا ي.جمعها شيء بالفتيات اللاتي ألاقيهنّ في نطاق الأسرة أو الجامعة. هاتيك، كُنْتُ أحَدِّثُهن كما أحَدِّث الفتيان، عن موضوعات أعِدُّها مُهِمَّة: عن الحالة ال.مت.هالكة للجامعة، أو عن الوضع السياسيّ للبلاد.
أكثر من مرَّة، فوجِئتُ ببعضهن يُقَرِّبْن وجوههن بأكثر ما يكون إلى وجهي، على

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وشك تقبيلي. ذات مرَّة، أخَذَت إحداهن يدي ووضعَتْها على صدرها، ترجوني أن أتَسَمَّع دقّات قلبـها. أُحرِجت من أولئك الفتيات. ما أمكن أن أقول لـهنّ إنّ الصفات الـمطلوبة تنقصُهنّ. ما تَحَسَّبْتُ لبزوغ تلك الفتاة الريفية. إذا هي تكشف في داخلي عن كائنٍ آخر أثيم لـم أدْرِ بالتصاقه بي كأنه توأم، لـه شهوةٌ جامحة، لا التَفَلسف يلجمُهَا ولا الأخلاقيّات تَكْبَحُها، تَغْشَى خلايا جسدي كُلَّها، ظاهرَها وباطنَها، فأتَوهَّج كُلِّي، من رأسي إلى قدمَيّ، بَشهْوَةٍ تجْعَل من قضيبي شَوْكةً جارحةً، حارقةً، مؤلـمة. كُلَّما خطرت لي الفتاة ورأيتُ وجهها بعَيْن الخيال، تـمَلَّكَتْني رغبةٌ مُبَرِّحة في الانفراد بـها على الفور عاريةً.

وعندئذٍ يداهِمني خاطِرٌ آخر، مُفْزِع: سوف تُسْلِمني جسدَها لأسْتبِيحه. أسْلَمَته هي من قبل لأيِّ راغبٍ في استباحتـه، لـمن مَلَك سداد بضع عشرات من القروش لكي يُسافِدَها. أسْرَق آخرون في التـمَتُّع بـها قبل أن تكون لي؛ وبعد أن أنالَها، سيأتي غيري على ما بقي من نضارتـها. هي تُمثِّل أجْمَل ما في الطبيعة وأقْبَح ما في الـمجتـمع. في نهاية الأمر، أليس لحلِّ هذه الـمعادلة، أننا أردْنا الثورة؟

قضيْتُ الأيام التالية يتنازعني الإغواء وضَبْط النفس. وصباح الجمعة خرجْتُ قاصدًا مُتَنزَّه الأزبكية، حيث تتراكم كلّ يوم على سُورِه مطبوعات استَنْفَدَها قارئوها، لكنّـها تَجْذِب مُولَعين آخرين.

وإذا قدماي تقودانني في اتِّجاه مسكن محمد، حيث ينتظرونني ثلاثتـهم. في الحق إنني لـم أشُكّ لحظةً في أنّ تلك هي وجْهَتي الـمحتومة. صعِدْتُ السُلَّم ببطء، وقلبي يَدُقُّ دقّاتٍ قويّة. كنت واعيًا تـمامًا أنني لـم أعد أمْلِكُ زمام نفسي: بأنّ ما يدفعني، خارجٌ عن إرادتي.

طرقْتُ الباب، ومحمد هو الذي فتَحَه. أشْرَق وجهُه بابتسامةٍ فاقَت ابتسامتـه الـمعهودة. لَكَأنّه اطْمَأنَّ: غشِيَتْه سعادةٌ حقيقية.

وإذا أنا أقول لـه:

ـ أراضٍ عن نفسك؟ ها أنت آخذٌ في إفساد مناضلٍ ثوري.

ـ تفضَّل. نحن في انتظارك.

ـ لـماذا؟

كان الشقيقان جالسَيْن في الـمدخل، الذي تَحَوَّل، بهذه الـمناسبة، إلى قاعة انتظار. حيَّياني بصخب، وأفْهَمَني محمد:

ـ قرَّرْنا أنْ يكون دوْرُك الأوَّل.

فَهِمْت أنّه أفشَى سِرِّي. لكنْ لـم أُوتَ وقتًا أتَذَمَّر فيه من خيانتـه. فهو لـم

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يدَّخر وسْعًا في إدخالي غرفة العُرْس، بل دفَعَني إليها دفْعًا. من دون أن يفوتَه أن يهمس في أذني، قبل أن يفتح الباب، قائلًا:

ـ باللّه عليك، لا تُكَرِّر فعلة سعيد.

ثم قال، مُسْتَدْركًا:

ـ آه، ولا تُقَبِّل الفتاة في فمها! هذا لا يشْمُلُه الاتفاق. ل.ه سعْرٌ خاص.

سعيد هو صديقهم الشاب الذي سبَقَ أن دعُوه إلى احتفال بفَضِّ البكارة. وبدلًا من الانقضاض على الفريسة، راح يحُثُّها على ارتداء ملابسها، مُلْقِيًا عليها دَرْسًا في الأخلاق، قوامه أنّ عليها أن تت.مَرَّد على ذلك الاستغلال لجسدها. وإذ اضْطَرَبَت الفتاة، التي ل.م تفْقه من قَوْلِه شيئًا، وخشِيَت ألّا تُنْقَد ال.مبلغ الذي اتُّفِق عليه، خَرَجت إلى سائر الزبائن تَزْجُرُهم.

ما كان مُحْتَمَلًا أن أُكَرِّر فعلة سعيد.

الغرفة. وشيش النوافذ مُغْلَق، من خلال.ه تتَسَرَّب أشِعَّة شمس الظهيرة الذهبية، والفتاة مُسْتَلْقِيَة على سرير محمد، عاريةً. وكأنّ شيئًا ل.م يكن. فوق مُلاءات الفراش البيضاء ال.مُجَعَّدَة، تزيد بشرت.ها ذات لون العسل الداكن، من تجَلِّي معال.م جسدها الغَضِّ العَفِيّ. كانت عيناها على باب الغرفة، من حيث دخَلْت. جعَلَتْني أشْعر بأنها تنظر إليَّ، لا إلى زبون.

من دون أن أدْري، ل.م أعُدْ مُرْتديًا ملابسي. تَوَزَّعْتُ في نظراتٍ عديدة، إلى وجهها، بشهوانيت.ه التلقائية، وإلى حَلَمتَي ثدْيَ.يْ.ها النّاتئتَين، وإلى شُعَيْرات عانت.ها ال.مُنْتَفِشَة. إرْتجَفْتُ. ل.م أكن أنا آل.مُهَيْمِنَ على ال.مشْهد.

سمعْتُ صوت.ها لأوّل مرَّة.

ـ تعال.

هو صوتٌ أجَشّ، خشن. من أعماق الريف جاءت هي، وبكلّ ما فيها تناديني. ول.م ألْبَث أن استَلْقَيْتُ بجوارها، فما لبِثْتُ أنِ اسْتَولَت على جسدي، واثبةً عليه بخفَّة الفهود. أمْسَكَت بذراعَيَّ ال.مُنْفَلِتتَين لتُحِيط بهما فخذَيْ.ها، وارتَفَعَت بال.مهارة وال.مرونة نفسيهما قبل أن تُمْسِك بقضيبي وتُصَوِّبَه نحو مدخل فَرْجِها. أدْخَلَتْه حتى العمق، بإنزال نصفها الأسفل برفق.

كان لراحتيها مثل ما لباطن قدمَيْها، مَلْمَسٌ صُلْبٌ خشِن، هو الذي لجِلْد الفلاحات. وجَدْتُني أرِقُّ ل.هذا.

توَقَّفَت عن الحركة، استعدادًا ل.مفاجأةٍ جديدة.

ـ والآن يا جميل، قَبِّلْني.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ لكنهم قالوا لي...

ـ قبِّلْني، ولا تتَعَجَّل النهاية.

لـم أكن أعرف ما هو التقبيل، وما كانت لَتَتْرُكني أكْتشِفه وحدي. إفتَضّتْ شَفَتاها شَفَتَيَّ بالْتذاذ، والتَفَّ لسانها بلساني، يلْعَق ما حَوْلـه حتى الحلْق. وفي الوقت نفسه، بدأتِ الـمُراوَحة.

من أوَّل الأمر إلى آخره، كانت هي التي تحَكَّمَت في كلّ شيء، لكنْ لـم يمكنها تقرير النهاية، التي جاءت بأسرع مما يـجب.

عندئذٍ قالت:

ـ لا تتحَرَّك!

تَصَلَّب جسدُها، وتَنَهَّدَت. ظلَّت عيناها مُغْلَقَتَين لبُرهةٍ طويلة ثم فتحَتْهما.

ـ في الـمرَّة الـمقبلة، حاول أن تسْت.مِرَّ لـمدَّةٍ أطْوَل قليلًا.

لـم أُرِدْ الانصراف، وبدا لي أنها لـم تكن تريد أن أمضِي، لكنّ الآخرين كانوا خلف الباب، منتظرين. أسْرَعْتُ بارتداء ملابسي، وخَرَجْتُ من دون أن يحضرني قَوْل، والتالي يدخل الحجرة بدَوْرِه.

بنظرةٍ كُلُّها تساؤل، قال لي محمد:

ـ وإذن؟

راوَغْتُه، قائلًا:

ـ هل لي أن آخذ دُشًّا؟

حين لاقَيْتُه، بعد ذلك بيومين، أبْلَغَني أنهم جميعًا سُرُّوا جِدًّا بالفتاة، وطلبوا منها العودة في يوم الجمعة التالي، وأنني سأكون، بالتأكيد، موضع الترحيب. وأضاف أن الفتاة هي التي تـَمَنّت حضوري.

لـم تَعُدْ في يوم الجمعة، ولا في أيِّ يوم آخر.

[5]

أُغلِق باب الزنزانة وغمرنا نحن الاثنين الظلام.

شُلَّ لساني برهة. فرحتي بأني لـم أعد وحدي، كادت تطغَى على دهشتي من رؤية محمد: رؤيتـه هو، أمامي.

قال أحدُنا:

ـ يا لـها من مفاجأة.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وضع محمّد متاعه على أرض الزِنزانة وجلس عليه، وهو مشْدوهٌ بأكثر بعدُ مما كنت أنا. وت.مت.م قائلًا:

ـ بِذهني كل ما ستسألني عنه.

ـ لكنْ ل.ماذا اعتُقِلْت؟

ـ هذا ما سعيتُ جاهدًا ل.معرفت.ه.

ساد الصمت ثانيةً، ثم أرْدَف قائلًا:

ـ الأصل في كلّ هذا، هو اعتقالكم. كان أثره فيَّ أشدَّ كثيرًا مما أمكن لي أنا نفسي أن أتصوَّر. فجأة أدركت مدى محبتي لكم، برغم ما تقولون به أنت.م من ديكتاتوريّة البروليتاريا تلك. تعرف أنت ـ أو ربما لا تعرف ـ أنّ لي أقارب في سوريا. قرَّرْتُ أن أقوم بجولة هناك.

ـ بُغْية استنشاق هواءٍ أكثرَ حريةً؟

تغاضَى مُستطردًا:

ـ وجهتي الحقيقية كانت العراق. هو البلد الذي شاقتني رؤيتُه. سوريا رضِيَت أن تلْت.همها مصر. العراق أبَى. ل.ماذا؟ لأن الحزب الشيوعيَّ عندهم شديد القوة: عارض اندماجًا مع مصر كان سيصير أُولَى ضحاياه. أردت أن أذهب لأرى، على ال.موقع، مرأى شعبٍ قال لا لعبد الناصر.

تلاشَت جدران الزنزانة. ترَحَّلْتُ معه عبر ميناء الإسكندرية، حيث استقَلَّ سفينة في طريقها إلى اللاذقية. وهناك لاقَى أقارب ل.ه مضوا به إلى دمشق، وحيث التقَى كُتّابًا وفنانين وصحافيين بدوا ل.ه تائهين بعض الشيء. إتّحاد بلادهم بالشقيقة الكبرى مصر، جرى بحبور وبهجة، لكنّ الأيام التالية أنذرَتْ بما قد يُخيِّب آمال.هم. في الحياة اليومية، كانت الوحدة اسْتزراعًا ـ في أرضهم ـ لدولة عبد الناصر البوليسيّة. سرعان ما انتُقِص ما ت.متَّعوا به، حتى حينها، من ألوان الحرية. ما عهده السوريون من تعدّدية، حلَّ محل.ه تَحَكُّم الرئيس ال.مصري. حُظِر الحزب الشيوعي. فصَوْب العراق، تطلَّعَتْ أنظار جميع من اكتشفوا أنهم خُدِعوا.

ل.م يكن في الإمكان الانتقال من سوريا إلى العراق بالطُرُق ال.مشروعة، لكنّ الحدود بين البلدين طويلة ومهل.هلة، وال.مسالك الخَفِيَّة متعدِّدَة. بلَغ محمد بغداد من دون مشقّة. وهناك وجد مناخًا مختلفًا ت.امًا. هو: ال.مناضل ال.مصريّ الذي واتَتْه شجاعة ال.مُضِيّ حتى العراق، للجَهْر بمعارضت.ه ل.مشروع عبد الناصر العروبي: يا ل.ها من عملة نادرة! وإذن فقد قوبِل بتدليل، بفعل.ه دُعِي إلى اجت.ماعاتٍ سياسيّة بصفت.ه ممثلًا للشعب ال.مصري على حقيقت.ه. ألقَى خُطَبًا، وإذ غلبَتْه النشوة السائدة ف.ي ما حول.ه، ندَّد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بال.مشروع الناصري الديكتاتوري وأثنَى على ال.مشروع العراقي الثوري. إست.متَع بقاعات مكتظَّة بجماهير انتشَى بسماعِ تصفيقها.

ـ ل.ماذا عُدْتَ إذن؟

ـ بدأت أرى الجانب الآخر من ال.مشهد. النظام السياسي الذي يتصدَّى لعبد الناصر، ل.ه هو الآخر معارضون للنظام؛ وهو لا يعامل.هم بأفضل مما يعاملنا به عبد الناصر، بل إن الحال هناك أسْوَأ. سمعتُ عن مناضِلِين يختفون، وحضرْتُ محاكمةً ثورية كانت مهزلةً كئيبة، ورأيت مشانق تُنْصَب في الشوارع. في عنفهم، يفوقُنا العراقيون بكثير. باختصار، هو إرهاصٌ بديكتاتورية البروليتاريا. ل.م يَغِب عَنِّي ما أخاطر به إذ أعود إلى مصر، لكنني ل.م أعد أرغب في البقاء بالعراق.

ـ متي عُدْتَ؟

ـ منذ أسبوع... ثمانية أيام بالتحديد.

ـ وكيف اعتُقِلْتَ؟

ـ هذا هو أغرب ما في ال.موضوع. ظننْتُ أنّ.هم سيُطْبقون عليَّ عند هبوطي من السفينة في الإسكندريّة. أعدَدْت العُدَّة لشيء من هذا القبيل. كلّا على الإطلاق. عُدْتُ إلى بيتي بسلام. وحين جاؤوا لاعتقالي، كنتُ متأكّدًا أنّ.ه بسبب رحلتي إلى العراق. لكنّ.هم حتى ل.م يذكروها. ل.م أكَدْ أُصدَّق، لكنْ حقًّا لا يبدو عليهم أنهم على عل.مٍ ب.ها. نتصور نحن أنّ أجهزتنا الاستخباريّة تعرف كل شيء. ولكن... لن تُصَدِّق: اعتقلوني لأنّ.هم، في تقليبهم أضابيرهم رأسًا على عقب، اكتشفوا أنني أعرفك، وأنك كنتَ تجيء لزيارتي أحيانًا، لكنْ في هذه الحالة، ل.ماذا اعتقلوني أنا وحدي من دون مشاركِيَّ في السكن؟

ـ ومتى جئتَ إلى هنا؟

ـ وصلْتُ لتَوِّي. قضيتُ أسبوعًا في القلعة، ثم أحضروني إلى هنا.

نام قبل أن أنام أنا، تاركًا إياي أتسكّع وحدي في دروب رحلت.ه العجيبة.

إستيقظتُ وأنا أكاد أكون سعيدًا بما خطر لي من أن هذا الأسبوع من الحبس الانفرادي، تحَوَّل بمعجزة إلى التقاءٍ انفراديٍّ بمحمّد.

بينما كنا نَدُسُّ لُقَيمات خبزنا في القصْعَة ال.معدنيّة، لنغمسها في العسل الأسود الرديء الذي أتوا به في الأمسية ال.ماضية، سمعنا الصوتَ الوحيد الذي يمكن سماعه في ذلك الصمت: صوتَ خُطًى تقترب من زنزانتنا.

فُتِح الباب، وظهر الشاويش سليمان. أشار بإصبعه إلى محمد:

ـ أنت، تعال.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قام محمد، وخطا نحو الشاويش خطوة.

أوْقفه هذا بإشارة.

ـ أحضر متاعَك كذلك!

ـ ماذا؟

ـ متاعَك.

إلتفت محمد إليّ، كأنما ليسألني عما ي.جري، وما ي.جب عليه أن يفعل. قُمْتُ بدوري، بلا داع، إنما لكي أفعل مثل.ما فعل، وبغباء، ظللت واقفًا بلا حراك، بينما كان محمد يطوي في حصيرت.ه غطاء مرقده. إلْتقطَ متاعه والتفتَ إليّ ليعانِقني. تجنَّب كلّ منّا النظر في عيني الآخر. وحين أُغْلِق الباب، تعَلّقتُ بصوت خطوات.ه: خطوات.ه هو، التي جَهدْتُ لت.ييزها من خطوات الشاويش. ثم لا شيء.

ت.هاوَيْت ثانيةً على حصيرتي.

تضاعف شعوري بالعزلة. وتضاعفَت برودة الزنزانة. وغدا ثِقَلُ الصمت ضِعْفَ ما كان. بيني وبين السجّانِين حرب لا هُدْنة فيها أبدًا. ل.م أشعر قبل ذلك قطّ بمثل هذه الضراوة في ال.معاملة العدائيّة.

إذ تَنَبَّهْتُ إلى هذا، فجأةً، كان ل.ه فيّ تأثير اللطمة. إن كان سجّانِيّ يسعون إلى كسر معنوياتي، فعليّ أنا يتوقّف نجاحهم في ذلك أو إخفاقهم. ال.معركة تدور حَوْل ضميري، وأنا في موقع مُتَفَوِّق. عل.يّ على الفور الشروع في التَفَكُّر. أجل: التَفَكُّر، وسريعًا. عليّ أن أتشَبَّث بكلّ قواي بفكرةٍ تِلْوَ أخرى: ألّا أفقد السيطرة.

أمّا وقد رحل محمد، فقد خطر لي أن أستعرض بِدِقَّة الأسئلة التي طرحَتْها قصَّتُه، من دون أن تجيب عنها: ل.ماذا بالتحديد أُلقِي القبض عليه؟ أيمكن أن يكون ذلك لأنه صديقي ولا غير؟ في هذه الحالة، ل.ماذا ل.م يُقرَّر اعتقال.ه إلا بعد نحو عامٍ من اعتقالي، ول.ماذا ل.م يُوقَع في ال.مصيدة نفسها بشريكَيه في السكن؟ لكأنّ.ها مصادفة، أن يبدأ الاهت.مام بأمره على أثر رحلت.ه العراقية. كيف أمكن لأجهزة الدولة السرية، أجهزة الرئاسة والجيش والداخليّة، أن تجهل تلك الرحلة، فيما ألقَى الكل.مة في بغداد علنًا أكثر من مرّة، ضد سياسة عبد الناصر؟ ل.م يكن هذا معقولًا.

لكنْ إن كانت هذه الأجهزة تعل.م حقّ العل.م بسلوك محمد، ال.مقترن، في هذه الحالة بالخيانة العظمى، فكيف أمكن أن يُجَنِّبوه الاستجوابات العنيفة التي أوقعوها بالآخرين؟ منطقيًّا، وَجَب أن يُقتاد على الفور إلى السجن الحربيّ الرهيب، ولانتزعوا منه هناك اعترافات كاملة. إلا إن كان قد أدلى باعترافه من دون أن يُطْلَب منه، وقَبِل، ليُخَلِّص نفسه، أن يأتي إلى هنا ليتجسَّس علينا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ل.م أتوَصَّل إلي أيِّ رأي، لكنني جَهدْتُ أن أُرَتِّبَ برزانة جميع الافتراضات. من ناحيةٍ أخرى، ل.م يوجَد في هذا ال.معتقل ما يستحقّ التجَسُّس عليه. كنا جميعًا معروفين بما نُعرَف به: ل.م نكن نخفي موْقِفَنا ال.مُنْشَقَّ عن النظام السياسيّ، وعلى هذا كنا نجازَى بالتحديد. ل.م تكن لدينا خطط سرية، وتعْلَم السلطات هذا. ل.م يكن لدينا ما يغري بإرسال وشاة للنَبْش عنه.

عندئذ وجَدْتُني أمام افتراضٍ هدَّأ بالي، لكنه مُقْلِقٌ بشأن محمد: ل.م يكن قد ذهب إلي العراق قطّ. لقد اخْتَلَق كلّ شيء، فقد أصبح مريضًا بداء الكذب. بالرغم أنّني ل.م أكن قد استشعرت، عشيّة البارحة، ما يدعو إلى مثل هذا الظَن.

إذ شعرت بَغتةً بحاجة مُلِحَّة إلي الحركة: أن أفعل ببدني شيئًا، نهَضْتُ بقَفْزة. إستقصائي بشأن حالة محمد، أفْضَي إلى أسئلةٍ بأكثر منه إلى أجوبة. ل.م يَنْتُج منه سوى قَمْع ما في داخلي من غَضَب. وبقدمَين وقْعُهما على الأرض متين، رُحْتُ، بخطَى قصار، أذرع زنزانتي جيئةً وذهابًا، بِطُول.ها الذي لا يتعدَّي أمتارًا ثلاثة، وهو ما بدا لي نوعًا من العبث.

كنت بحاجةٍ إلى أن أضرب شيئًا ما، وبشِدَّة: أيَّ شيء. نَظَرْتُ إلى الأشياء البسيطة التي بحوزتي، واحدًا تِلْوَ الآخر. ل.م أكن لَأسدِّد ضرباتي إلى القصْعَة ال.معدنيّة التي يوضع فيها طعامي. طويْتُ متاعي، موثِ.قًا بإحكام غطاءَ مرقدي بالحصيرة؛ وبذا وجِدَتْ كُتلةٌ لا هي بالغة الرخاوة ولا هي بالغة الت.ماسك، ث.بَّ.تُّها إلى الحائط مرتكزةً على الأرضيّة ثم جَثَ.وْت على ركبتَيَّ، ورُحْتُ أضرب.

طويلًا واصلْتُ الضرب، وأنا أتنفَّس في البدء بانتظام، ثم على نحوٍ أشد تقَطُّعًا، حتّى انقطع نفَسي. بعدها ل.م يبقَ لي من طاقة سوى ما يكفيني لإعادة بسط الحصيرة وغطاء مرقدي على الأرض. وثمة ت.هاوَيْتُ، متصبِّبًا عرقًا، منبوذًا، خاويًا.

هكذا سأظلُّ ساعات كثيرة قبل نزول الليل. لقد ارتطمْتُ بالقاع ول.م يكن لي أن أخدع نفسي، ففي الحقّ صِرْت بالِغَ التعاسة. لن أعود أقوَى على ال.مُكابرة كي أثبت العكس. لا بأس. تقَبَّلْتُ كَوْني تعسًا، وهذا، على غرابت.ه، أراحني للتَ.وِّ.

غَدَوْتُ واثقًا بأنني لن أنكسر. أمّا بشأن سائر الأمور، فليكن، فيما بعد، مَحَلَّ نظر. واستغرقْتُ في النوم.

إستردتُ وعيي مُتراخيًا، لتأتيني تباعًا ذكريات مَبْعَثُها الطفولة، متوَهِّجة الألوان كأنها أضواء بعيدة لاحتفالات الأعياد.

قريتي الأولَى. وسنوات خالية من ال.هموم. فيها عشنا بمأمنٍ من الطوارئ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ال‌مادية. أبي موظّف في الحكومة، يتَلَقَّى راتبًا شهريًّا مضمونًا: مأمونًا؛ بفضل‌ه ابْتيعَت لنا كسوة جديدة مرتين في العام، قُبَيل مواسم الأعياد، ونلنا بضعة قروش ك‌مصروفٍ للجيب كي نست‌متع بالعروض والألعاب الجائلة ال‌مُتاحة في تلك ال‌مناسبات، بل وأحيانًا لنشتري حَلْوَى. وفي كل يوم، نُعِدُّ وجبةً كاملة.

عند ذِكرِهم قريتنا، كان أهاليها يقولون: «بلدي». وطويلًا ظلَّت ال‌مسافة بين «بلدي» وسائر البقاع تبدو لي عسيرة الاجتياز. ثم بدأ محيطي في الاتساع، ليشْمل مجالات حولنا، ضمَّت ال‌مواقع الوظيفية التي تَنقَّل أبي بينها.

في البدء كانت فارسكور، وهي مركز نُقِل أبي إليه إذ عُيِّن ناظر مدرسة. إنتقلنا إلى شقة بمعنى الكل‌مة، في الدور الأول من بناية كان الدور الأرضي فيها يَقْطُنُه اثنان في سنّ الشباب، حديثا الزواج ول‌م يُنْجِبا بعدُ، والزَوْج من العاملين في البحرية. وعلى لسان الزوجة سمعْتُ لأوَّل مرة أسماء قبرص وكريت واليونان.

أمّا اسمها، فهو عزيزة، وفيها اكتشفْتُ اللُطْفَ والنُبْل. كان ل‌ها وجهٌ دقيق القَسَمات، وكُلُّه رِقَّة. ما إن أظْهَر حتّى يُشْرِق. يكاد يبدو أنه لا يشرق إلّا لي. وزوجها أراد أن يَجْمَع من ال‌مال ما يكفي ل‌مشروع فَتْح مقهَى، فكَثُر تَغَيُّبُه. وتظلُّ هي وحيدة، وانت‌هَى ب‌ها الأمر إلى أن تبَنَّتْني. إعْتَدْت النزول إلى مسكنها متى استطعْتُ، لأمضي أمسيات بأكمل‌ها جالسًا إليها، أست‌مع إلى القصص التي ترويها لي، قصصٍ ساحرة ل‌م أجِدْها، فيما بعد، في أيِّ كتاب. كُلُّ ما قَصَّتْه عليَّ، كان من ابتكارها: هي أقاصيص ألف ليلة وليلة، لي وحدي. وأغادرها مُنبهِرًا، من دون أن أفهم ل‌ماذا تبعث نظرت‌ها، ال‌موجهة إليَّ ساعة مُضِيِّي، في أعماقي حزنًا يستعصي على التفسير.

ثم كانت دمياط: مدينة بمعنى الكل‌مة، حيث اكتسب كلّ شيء أبعادًا جديدة: الشوارع والبنايات والجسور، ولكن كذلك آفاقي الداخلية: مجالات تنْفَتِح لخيالي.

أثناء العُطَل الصيفية، اعتَدْتُ العودة إلى قريتنا، لدَى جَدِّي وجدَّتي. في البداية شعرْتُ بالابت‌هاج. ثم قليلًا قليلًا، جعلت تلك الزيارات تستغرق مُدَدًا أقلّ، وتتباعد فيما بينها. كم تَعَجَّبْتُ من قذارة الدروب ال‌مُتْربة، ومن ضيق أذهان الناس، وال‌مشَقَّة في كلّ خطوة. ل‌م تكن الكهرباء قد أُدْخِلَت بعدُ، فيما ل‌م يعد يمكنني الاستغناء عن القراءة. ل‌م يكن هناك من مكتبة، ولا دار سينما، بل ولا جهاز راديو لدى الأسرة.

كنت أت‌مدَّد على الحشائش، في ركنٍ ظليل على حافّة الترعة، راغبًا في الانتشاء بنسيم الريف الرقيق. وعلى الغور يحتفل الذباب والبعوض والزنابير،

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وغيرها من الحشرات ال.متعطِّشة لدماء ابن ال.مدينة، بالانقضاض عليَّ، تجذب.ها نظافتي. وأنهض مُنهكًا، ملابسي مَكْسُوَّة بجحافل من النمل الضخم، فلا أعود متلَهِّفًا إلّا للرجوع إلى دمياط.

كنت قد اكتشفْتُ لتَوَّي أن الكُتَب ل.م تُجْعَل ل.معاونتي في ال.مدرسة أو لتعليمي الحقائقَ الدينيّة الخالدة فحسب، بل لتكشف لي العالم أيضًا. عزيزة هي التي أتاحت لي أوائل أسفاري فيما وراء البحار، وصارت الكتب اكتشافي للأميركيّتين!

في البداية ل.م تكن تلك الكتب في متناولي. ل.م أملك الإمكانات لذلك. لكنْ أُتيحت لي ملخّصات ومقتطفات نُشِرَت في مجلتين للثقافة الشعبية، عَل.مانيتَي النزعة، صدرتا بعد الحرب العُظْمَى، كان أبي يتلقّاهما عن طريق الاشتراك ويحتفظ بأعدادهما مرصوصة بعناية في ركنٍ من شرفتنا، تُغَطِّيها مُلاءة.

إكتشفْتُ الكنز بالصدفة، في بداية العطلة الصيفيّة. بدأْتُ بتصَفُّح الأعداد على نحوٍ عشوائيٍّ؛ ثم بِتُّ أقضي من الوقت أكثر فأكثر: عدة ساعات في اليوم... مسلسلات وأقاصيص وروايات، بعضها ل.مصريين لكنّ أغلب.ها لكُتّاب فرنسيين وإنكليز وأميركيين، في ترجمة إلى العربية. صارت الشرفةُ الجزيرةَ التي أعتصم ب.ها. فمتى بحث عنّي أبي وأمي، عرفا أين ي.جداني.

في أحد الأيام، وقَعْت على هوميروس، في ترجمة ل.ملحَمَتَيْه ل.م تكن إلا نسخة بالغة الإي.جاز للإلياذة والأوديسيّة. لكنّني ل.م أدرك هذا إلا فيما بعد. مثَّل النصّ الذي بين يديَّ منعطفًا: ل.م يشابه أوليس أيًّا من الشخوص التي رافقَتْني منذ الطفولة الأولى، ال.مستخرجَة من هيكل الإسلام أو من ملاحم أهل الريف، إذ تَوَجَّه إليَّ أنا بكلامه.

قال لي إن الحرية والإرادة كفيلتان بتغيير مسار حياة ال.مرء، وإنّ بمستطاع البشر مغالبة الأرباب. بحماسة رافقْتُه، في معاركه وفي غراميّات.ه... في الأخطار التي جابهها، مثل.ما في ال.ملذّات التي ذاقها، في الجزر التي تنقَّل بينها، ومع النساء اللاتي اسْت.هوَينه.

مع هذا، فقد ظلِلتُ أستغرب أحد الأمور: في تقَلُّب أوليس بين أحضان كيركِه وكاليبسو، كيف ظل قلبه مُعلَّقًا ب.بنلوبي برباطٍ وثيق. في تلك ال.مُفارَقة ال.مُتَمَثِّلة في وفائه ل.ها، طيلة مغامرت.ه التي خانها خلال.ها. إستشعرْتُ أبعادًا تتعَذَّر عليَّ الإحاطةُ ب.ها: لغزًا لا بدّ من حَلِّه، عاهَدْتُ نفسي على معاودة استجلائه فيما بعد.

بَغتة قُمْتُ واقفًا، فما عُدْتُ وحيدًا في الزنزانة: وُجِدَت نادية فيها: عادت. عندئذٍ أدرك.تُ ما كان من اختفائها، أنها غابت عن عينيّ، بغرابة، طيلة نهارٍ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بأكمل.ه. إسْتَعَدْتُ رشدي.

الآن بات في استطاعتي أن أنَظِّم جَدْوَلي الأسبوعي في الزنزانة: أوقات الوحدة غير ال.مُتَوَقَّعة تلك، سأكَرِّسها لنادية. لن أكتفيَ بانتظارها. سأسْتَبِقُها. سأبْتَعِث قِصّتنا، منذ البداية، فصلًا تلو فصل. على هذا النحو سأحتفل. سأعاود اكتشاف تلك اللحظات السحرية التي كشفَتني لنفسي رويدًا رويدًا. سأستعرِض لقاءاتنا، مُتَلَهِّفًا: عائشًا من جديد كلّ لقاء، لل.مرّة الأولى.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[6]

كم من ال.مصادفات تعاقبَت، حتى أتيح لنا التلاقي.

أوَّل كلّ شيء، وَجَبَ أن تغْدوَ القاهرة مثواي لا دمياط. لتَوِّها أخذْتُ على أبي أنه استأجر شقة في بناية حديثة، تقع في حيّ الدُقِّي الراقي نسبيًّا. ل.م يكن ذلك الاختيار في حدود إمكانات.ه، وإن وَفى بما يعنيه ل.ه مركزه الاجت.ماعي. في الريف كان مرتّبه كناظر مدرسة، ي.جعل.ه من الأعيان، على العكس من العاصمة، حيث الأجور ترتفع بِـمُعَدِّل يَقِلُّ عن ذاك الذي ترتفع به الأسعار. لطال.ما اجْتَهَدْنا في حساب الفارق الكبير بين الاثنين: حال.ما ي.جري تسْدِيد إي.جار ال.مسكن والإنفاقُ على مُسْتَلْزماتنا، بما فيها الطعام، إلّا ل.م يعد باقيًا لنا شيء.

أمّا عن مصروف جيبي، فقد وَجَب تَرَقُّبُ مناسبات خاصّة: تَحَيُّن أوقاتٍ مواتية. إطلاقًا ل.م أنل مبلغًا ثابتًا بانتظام. في الحقّ أنّ حضورنا إلى القاهرة ل.م يسْتَثِر منّي إلا تكرار الشعور بالإحباط. قبل أيِّ شيء، لَبَّى حضورُنا إليها مَطْمَحَ والدي؛ وهو مطمح مُبْهَم عقيم، مشترَك بين آلاف من سائر موظفي التعليم القومي: أن يكونوا على مقربة من الإدارة ال.مركزية، وهذا بأمل الانتقال من وظيفة إلى أخرى: من التدريس إلى التفتيش، أيْ بلوغ مستوًى يزيدُ قليلًا أو كثيرًا من احترام الناس.

ذات يوم ـ وقد نفد صبري ـ قلت ل.ه:

ـ ل.ماذا ل.م نَبْقَ في دمياط؟ كم كنّا هناك أفضل حالًا.

ل.م يقُلْ شيئًا. نظر إليَّ نظرةً ل.م أعهدْها منه من قبل. ل.م تكن نظرة غضب، بل إقرارًا بال.هَوان يلومني على مباغَتَتِه بإرغامه على البَوْح به. فإذ بدأ يَعِي ما في مشروعه ال.مهنِيّ من جانب غائم: تَحَقَّق من أنّ ذاك هبط بنا في السُلَّم الاجت.ماعي. ل.م يكن في استطاعت.ه العثور على كل.مات ي.جيبني ب.ها. مُجَرَّد اضطراره إلى التبرير، كان ضربة تنال من سلطت.ه.

عندئذ كان إدراكي، لأول مرّة، أن تلك السلطة ليست تحصيل حاصل. ل.م تبعث

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

نظْرت.ه فيَّ شعورًا بالذنب. أَعْطَيْت نفسي الحق في التعْبيرِ عن مشاعري الحقيقية: أنْ أعْتب عليه ما تَجَشَّمَه في سبيل مشروعٍ انفراديٍّ طموح، غامر به من دون أن يبالي بمُرْتَقبات أسرت.ه. ثم إنَّنِي ساعت.ها عَبَّرْتُ عمّا هو أكثر مما بداخلي أنا من كَبْت: لقد جعلت نفسي تعربُ عن حزن أمِّي الصامت.

هي من بنات الريف، لا تعرف القراءة ولا الكتابة. ل.م يكن لدينا جهاز راديو: لا شيء يملأ عليها وحدت.ها، يُلْهِيها عن شعورٍ رهيب بالاغتراب. طيلة بضع سنوات تَلَت مغادرتنا قريتنا، ل.م يَبْعُد بنا ال.مجال، فأمكن لشقيقات.ها وقريبات.ها أن يزُرْن.ها. أمّا في القاهرة، فهي في عزلة تامّة عن عال.مها. جيرانها في الطابق نفسه، وإن ل.م يفصل.ها عنهم سوَى جدار، عاشوا في زمن آخر. شعرْتُ ب.ها تذْوِي قليلًا قليلًا.

في نهايات العصارِي، قبل بدْئي في مراجعةٍ دروسي، اعتدْتُ الذهاب إلى لقائها في حجرت.ها؛ أجدها في انتظاري، جالسةً في مقعدٍ مت.هالك: شعرها شاب قبل الأوان، ونظرت.ها شاردة، برؤيتي تستقِرُّ آمنة. كنت أروِي ل.ها كُلَّ ما ي.جول بذهني، وأنا متأكّد من أنّ ما أقول.ه لا يعني ل.ها ما يعْنيه حضوري. رغم ذلك، أبْذل جهدي لتذكُّر أحداثٍ فكاهية ولقاءات مدهشة، منتظرًا ضحكت.ها، التي ل.م تكن تُقهقه ب.ها، بل تبدو مخايِلُها فَحَسْب؛ إذ تكْت.مُها عن احتشامٍ مَبْعَثُه أعمق أعماق طفولت.ها، حين تَعَلَّمَت ألّا تجعل من نفسها موضع الانتباه أبدًا. تلك الضحكة الخاطفة، كأنها أنَّة طَائرٍ جريح، كانت لي كقربانٍ أتلقّاه. وأحيانا آخذ يدها، وفي حْلقِي غُصّة، لأطبع عليها قُبلة. وعادةً وضَعتُ هي النهاية لتلك اللحظات بتذْكيري بأوان الرجوع إلى كُتُبي. لن أغفر لأبي غَفْلَتَه عنها، في تخطيطه ل.مشروعات.ه ال.مهنيّة.

اللّه وحده أعل.م بكيفيّة حصولي على تقدير جيد جدًّا، في نهاية مرحلة الدراسة الثانويّة. هو ال.مفتاح السحري الذي لا غِنَى عنه للتَجَرُّؤ على التَقَدُّم لإحدَى كليات الطب. ل.م أُقْبَل في جامعة القاهرة، وهي أرفع الجامعات، بل في جامعة عين شمس، وكان مَقَرُّها بضاحيةٍ من ضواحي القاهرة تَبْعُد عدّة كيلومترات عن حي الدقّي. وإذ ل.م أكن قادرًا على تكاليف ال.مواصلات العامَّة، فقد وَجَبَ أن أذهب يوميًّا إلى الجامعة وأعود منها، على قدمَيّ.

دخولي الجامعة حقَّق أملًا لي، ومع ذلك تَوَجَّسْتُ منه. كان مُبَشِّرًا بصِلاتٍ لي مع باقةٍ من الفتيات، ل.م أعرف أيًّا منهن من قبل، سأخالِطُهنّ كلّ يوم. شاقني هذا، وإن في الوقت ذات.ه شعرْتُ بِكَبْت. ال.مغازلة تَعْنِي إنفاق نقود: يتعَسَّر تجميعُ ثمن تذكرة السينما. وسيكون ثمنُ التذكرتَيْن فوق طاقتي.

لكنْ قُدِّر لي أن أعْفَى من هذه الانشغالات، ذلك أن أول عامٍ لنا في الجامعة، ارْتَجَّ بفعل الحدث ال.هائل الذي هَزَّ مصر كُلَّها. إثر تأميم قناة السويس في

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يوليو سنة 1956، وما تلاه في أكتوبر (تشرين الأوّل) من العدوان الثلاثيّ (البريطانيّ الفرنسيّ الإسرائيليّ)، ظلّت الأذهان مشتبكة في الدوّامة السياسيّة والعسكريّة التي جرّت إليها البلاد بأجمعها. ل.م يتوافر لل.مغازلة بَراح.

أنور هو أوّل من عَدَدْت.ه من معارفي في الحرم الجامعيّ، حين تصادَف أن تجاوَرْنا في ال.مُدَرَّج. في بداية كلامنا، تبادلنا بعض الجمل ال.معتادة. متوسط القامة هو، وإنْ كان متين البنية. لا يلْفِت مظهره الانتباه، ولكنّ لون عينيه رماديٌّ يَضْرِب إلى الزُرْقَة. قُلْتُ ل.ه إن الأغلب أنه سليل أحد جنود بونابرت الفرنسيين، بل ربما أحد جنود جيش لويس التاسع. ل.م يكن على عل.مٍ بشيءٍ من هذا. كم أثّرَت فيَّ نظرت.ه. إن تكن نظرةٌ خجِلَة، ففيها إخلاص. منها استشعَرْتُ طِيبةَ قلبٍ حقيقيّة، تنقصها الجرأة على الإفصاح، ما ل.م يتوافرْ أساسٌ متينٌ يُرْتَكَز علَيه.

في اليومِ التالي وَجَدْتُه واقفًا عند باب ال.مُدَرَّج، يدَخِّن سي.جارة. لأوّل مرَّةٍ أرَى زميلًا يدخن. هي على أيِّ حال، علامة على أنه لا يُعاني الأوجاع ال.ماديّة التي أعانيها. إنتظرْتُ بجانبه حتى فَرَغَ من التدخين. بعد ذلك اعتَدْنا أن نلْتقي كل صباح. في أحد الأيام، أيْقَنْتُ أنه صار صديقي.

ل.م تَجْرِ بيننا مناقشات في السياسة، لكن متى جَرَت بيني وبين آخرين من الطُلاب، كان دائمًا يأخذ صَفّي. وإنْ حدث أن تَدَخَّل في الحديث، مرة أو أخرى، فإنما ل.مساندة موقفي أنا. وقُرْب نهاية العام الجامعيّ، سألني إن كان يمكنه الانضمام إلى مُنَظَّمَتِنا، وهو ما بدا لي، عندئذ، مفروغًا منه.

في العام الجامعي الثاني، ظهرَت نادية. بدأَت هي دراست.ها بجامعة الإسكندرية، ولسببٍ غير معروف، نُقِلَت إلى جامعتنا، لكن فور مجيئها إلينا، غَدَت قِبلة أنظار الدُفْعة. ما أمكن ألّا تسترعي الانتباه. ل.م تكن جميلةً فحسب، بل مُشْرِقة أيضًا.

إعتادت الجلوس في الصف الأول، يحوط ب.ها سرْبٌ من ال.معجَبين. بينما آثرْتُ أنا مقاعد الصف الأخير، من حيث أُشْرِفُ على ال.مُدَرَّج. ل.م أشأ الانضمام إلى ذلك ال.موكب التابع ل.ها، لكنْ ل.م أستطع ألّا أتأمّل.ها، متى تَصادَف أن تلْتَفِت كي تتحدّث إلى زملائها الجالسين خلفها.

حتى عن بُعد، اجتذبني وجهُها النوراني، بتينك العينين الواسعتين ال.مُتَّقِد سوادُهما، مُنعكسًا على بياض إهاب.ها الحريريّ. دارت بخَلَدي الصورة الفاتنة في نقوش آثارنا، ل.ملكةٍ فرعونيّة: مُغْرية ولكنها مستعصية... وضّاءة ولكنها خَفِيَّة.

مرَّت ثلاثة أشهر، قبل أن يكون من نصيبي أن ألقاها وجْهًا لوجه.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بدأ الدَوْر الثاني من السنة الدراسيّة. كنت وأنور خارجَين من ال.مُدَرَّج، نبْحَثُ، عبر ممرّات متشابكة، عن مُ.ختب.ر، أُنْشِئ حديثًا. ل.م نكن نعرف مكانه بالضبط. في البداية دفعْنا بابًا ل.م يكن ال.مطلوب، وعُدْنا أدراجنا، لنكاد نصطدم بناديَة، التي كانت في طريقها بالتحديد نحو الباب الذي تركناه لتوِّنا.

بمشْيَت.ها الرشيقة الانسيابية، بدت كأنّ.ها تَشُقُّ ال.هواء. ونظرت.ها التي تحيط بكلّ ما حول.ها، تظل تُشِعُّ لَوْعَةً فيها حلاوة وإغراء. أحْسَسْتُ قَشعَريرة تسري في جسدي.

تجاوزَتْنا، ودفَعَت باب ال.معمل، ول.م نعد نراها. أدْرَكْتُ أنّ نظرت.ها شملَتْ محيطنا، لكنْ ل.م أدْرِ هل رأتني أم لا. واصَلْنا، أنور وأنا، قَطْعَنا ل.ممرَات أخرى. ل.م نتبادل الحديث، ول.م أكن أنظر إليه. لكنني أحسَسْتُ بعينيهِ مُثَبَّتَتيْن عليّ. وحين وجدنا، أخيرًا، باب ال.معمل، أوقفني بل.مسة من يده، قائلًا:

ـ هل أنت على ما يُرام؟

ـ ... ولكن، ل.ماذا تُوَجِّه إليَّ هذا السؤال؟

ـ ليست أول مرَّة تراها فيها.

ـ كلا، بالتأكيد... هي في مُدَرَّجنا.

ـ تجيئُه مبكرًا، وتجلس في الصف الأول. أنت تجيء متأخّرًا، وتجلس في الأخير. لذا قد تَمضِي السنة من دون أن تلتقِيا.

ـ هذا قد يكون الأفضل.

تَنَهَّد، ثم قال برزانة:

ـ من واجبي أن أحيطك عل.مًا بالوضع الحالي لل.منافسة: اثنان من ال.معيدين يطاردانها. ثم توجَد عُصْبَةُ زملائنا الإيطاليين، الذين يحومون حول.ها. كثيرون منهم لديهم سيّارات. كلّ هذا الجمع يتلاقى أحيانا في الكافيتريا، لكنّ هذا موضعٌ لا تغشاه أنت.

قُلْتُ لأنور:

ـ وصلَتْني رسالتك.

ـ هل أنت متأكد؟

إستطردْتُ، متغاضيًا:

ـ لكنْ كيف عرَفْتَ أنت كلّ هذا؟

ـ يتفّق أن أمُرَّ بالكافيتيريا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ لكنّك لـم تُحَدِّثْني عنها قطّ.

ـ أُحَدِّثُك أنت، عن فتاة؟

إنتزَعَت إجابت.ه منِّي ابتسامةً.

ـ حسنًا. لكن ما هو موضوع الإيطاليين هذا؟ ما الذي جاؤوا يفعلونه بيننا؟ ألا توجد في بَلَدهم كليات للطب؟ في الـمدرسة الثانويّة كان معنا تلامذة فلسطينيون. هذا مفهوم، بشأن الفلسطينيين. أمّا الإيطاليّون...

ـ فيمَ يُضِيرُك الإيطاليون. هم بالأحرَى مُسَلُّون. ليسوا بريطانيّي.ن. هم بلا أهداف إمبريالية.

ـ إذن فليَكُفُّوا عن اختلاس النظر إلى مَفاخِرِ وطننا.

رحنا نقهقه بضحكٍ لـم يكن صافيًا.

لـم تَمُرّ عليّ فترة العصر بسلام (وكانت فترة الليل أسوَأ): أثناء ساعتَي العمل اللتين قضيت.هما في الـمعمل، ركَّزْتُ على التجربة الكيميائيّة التي أقوم ب.ها. لكنْ في طريق عودتي، بدأ يت.ملَّكُني الاضطراب: القدَر يشابك الخطوط. حقًّا إنه وضع في طريقي أميرةً، لكنها لن تكون لي. نادية تنت.مي إلى وسطٍ بورجوازيٍّ لن ألِـجَه أبدًا. بل وأكثر من ذلك، أنها آثرَت صُحْبة الإيطاليين على صُحْبة الـمصريين. وصلْتُ إلى الـمنزل وأنا فريسة الاكتئاب.

فكَّرْتُ في التبكير بالاستيقاظ صبيحة اليوم التالي والذهاب إلى الكافيتيريا، للتأكد. لكنْ للتأكد من ماذا؟ أعرف سلفًا أنّ نادية ستكون هناك، حيث ستلتقي زملاء معظمهم إيطاليّون لديهم جميعًا إمكانات ليست لديّ. إن ظهرْتُ بينهم، فليس إلّا لأجعل من نفسي هُزْأة. وسيختلف رأي أنور فيّ.

أنور: كان حديثه إليّ عن نادية، بلـهجةٍ لـم أعْتَدْها منه: بانفعالٍ وبحَسْم، وكأنّ من الطبيعيّ أنّ ما يتعلّق ب.ها يمسُّه هو.

هو ذاك: إنّه مُغْرَم ب.ها.

أردْتُ أن أسمعه يقول.ها لي.

لـم يكن هذا من طبيعتي على الإطلاق. حين سبَق أن صرَّح لي بشيءٍ ما، أو اعترف بشيءٍ ما، كان لِـحاجةٍ استشْعرَها. لـم أكن أنا الذي أسعَى إلى ذلك، بل أتركه يختار اللحظة الـمَناسِبة. هذه الـمرَّة: كلا. سألْتُه، ما إن خَلوْتُ به:

ـ أتُحِبُّها؟

لـم يحتَجْ حتَّى إلى إجابة. بدا لي أعزلَ وتعسًا إلى حدٍّ أنني ندَمْتُ على اندفاعي. لكنْ وجب أن أتَيَقَّن، كي أحَذِّرَه: لـماذا يسعَى إلى شقائه؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ أتعْل.م بقصّة قيس وليلَى؟

ـ ليس حقّ العل.م.

ـ قيس هو نموذج الغرام الجنونيّ، وهو ما أمْقُتُه من الوريد إلى الوريد. يقولُ تاريخ الشعر العربي إنّ.ه وقَع في غرام ابنة عمِّه، التي حُرِّمَت عليه لأن أباها قرَّر تزوي.جها لغيره. فراح قيس يبكيها طيلة ما بقي من عمره، يَبُثُّ الأحجارَ شكواه ويهيم في الفلاة مُناجيًا وحوشها. يقال إنّ هذا الغرام هو في حقيقت.ه حُبٌّ صوفي. ما أسعد قيس بهذا! أما أنا، فلا، شكرًا. هذه الطريقة في الحب، وفي التفكير، وفي العيش، هي التي تَرَدَّت بنا إلى الحضيض الذي نحن فيه.

في احْتِدادي، ل.م أعد حتّى أدرك ما أست.هْدِفُه بكلامي، فخت.مثُه بقولي:

ـ في زماننا هذا، يُستحْسَن ألّا يُتَّخذ قيس قدوةً. دَعْك من نادية! ليست هي مِن عالَمنا.

ـ أعرف هذا.

قال.ها بصوتٍ يَنِمُّ عن عدم اقتناع وبشِدَّةٍ آل.مَتْني. لقد ضربَت نادية ضرْبَتَها. وأنا الذي أحسسْتُ بال.مسؤولية عن شقاء أنور.

بقيّة القصة، ما ل.م أتصَوَّره قطّ.

كُنّا جميعًا قد استقررنا في مواقعنا في ال.مُدَرَّج، وكلّ منّا عند حضوره يتوجَّه إلى مكانٍ صار مكانَه، على نحوٍ ما، من دون سببٍ معروف.

في ذلك الصباح، الت.مَسْتُ مكاني ال.معتاد، فوجدْتُه مشغولًا، أو بالأحرَى محجوزًا، بكُتُب وأوراق من بدا علية أنّ.ه استولى من تلقاء نفسه على ال.مكان ال.مفترَض أن أجلس فيه. فوجِئْتُ بهذه ال.مزاحَمة، لكن من دون مزيد من الاهت.مام. ل.م أفكّر في الالتفات لأعرف الفاعل. تأهَّبْتُ للتوجّه إلى مكان آخر، حين رأيت يدًا ت.متَدُّ من جَنْبٍ لتُفْسِح لي موضعًا، بإخلاء ال.مكان ممّا يشغل.ه. كانت يد نادية.

ظلَلْتُ مُسَمَّرًا حيث أنا.

ل.م يفت.ها اندهاشي، فأطْلَقَت ضحكة ابت.هاج سَرعان ما كتَمَتْها تأدُّبًا. ل.م أكن مُغْرَمًا ب.ها، مثل أنور، لكنّ تلك الضحكة التي ما كادت تتَبَدَّى، جعلَتْني أقْشَعِرُّ من الرأس إلى القدم.

تشاغلَتْ نادية عنّي بال.مُحاضِر، الذي أوْلَت.ه كلّ انتباهها. تردَّدْتُ في الجلوس جوراها. ل.م يكن أيٌّ من هذا في الحسبان. دعت ملابسي إلى الرثاء: ياقة قميصي نظيفة، لكنها رَثَّت منذ زمن وحذائي الذي أبلاه سيري يوميًّا مسافاتٍ طويلة، تراكَم عليه غبار الشهور...

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

رفعَت نادية رأسها. وبنظرةٍ منها، دعَتْني إلى الجلوس، مُعبِّرةً برفع أحد حاجبيها عن اندهاشها لإحجامي. جلسْتُ.

أمضَيْتُ وقت ال.مُحاضِرة بأكمل.ه حائرًا في ما ي.جب أن أفعل.ه بعد ذلك. طفِقْتُ أشخْبِطُ ما قد يكون مذكّرات، مُدَوِّنا الكل.مات التي أسمعها ولكن يفوتني معناها، وعِطْر نادية يُدير رأسي. ل.م أكن قدِ استنْشَقْتُ مثل.ه قطّ. وجَب أن أصْمُد أمام الانتشاء الذي بدأ يغزوني.

ل.م أفهم ما تريده مني. فهنا جلست نادية، أقرب ما يكون إليّ. جاورْتُها وأحسَسْت برفرفات ردائها. لَ.م أعد قادرًا على التفكير. أهذه ساعةٌ يحقُّ لأنور أن يغيب فيها؟ اللعنة، كيف سيكون ردّ فعل.ه حين سأروي ل.ه ما حدث؟

إذ انت.هَت ال.مُحاضِرة، استأنفَت نادية مبادرت.ها:

ـ أنت معتاد أن يكون ال.مكان ال.مجاور لك خاليًا...

لا بدّ أنّ.ها راقبَتْني منذ زمن، لكي تلحظ خُلُوَّ ال.مكان، في العادة.

هذه ال.مصارحة أضْعَفَت قواي. ول.م يفُتْها هذا، وأب.هَجَها. ما أقوَى ثقت.ها بنفسها، تقتحمني ولا تخشى الخطأ.

قالت، مشيرةً بذقنها إلى كرّاسة مذكّراتي:

ـ خطُّك جميل منتظم وأنيق.

تلعْثَمْت:

ـ أهذا رأيك؟

ـ قارِن خطِّي أنا.

ـ إنه لا يَقِلُّ جمالًا...

أردْتُ أن أقول: «لا يَقِلُّ جمالًا عنك". لكنّني شعرْتُ بنفسي شديدَ التَخَبُّط. تَرَكْتُ الجملة معلَّقةً في ال.هواء، مرتاحًا لحضور ال.مُحاضِر التالي. لك.نّ.ها ل.م تعْدِل عن مواصلة الحوار:

ـ ألا تستخدم قل.م الحبر؟

ـ كلا.

ـ ل.ماذا؟

نظرْتُ إلى قل.م الحبر الجافّ الذي أستخدمه:

ـ يُريحني هذا أكثر من غيره. ودِدْتُ أن أكون أنا الذي اخترَعْتُه، لكنّ غيري سبقني إليه.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أطْلَقَت ضَحكَة، رنينها من بِلّور، سحرتني أكثر مما فَعَل عطرُها. كاد ألّا يكون حقيقيًّا، ما في كل.مات.ها وأهْوَن لفتات.ها ـ ورَنَّة صوت.ها ـ من إحكامٍ وتنغيم.

بدأ ال.مُحاضِر حديثَه، وعادت تُدَوِّن في ورقها. لا أعرف كيف مضت الساعة التالية عليّ. بِانت.هاء ال.محاضرة، نهضَت نادية، ب.هيئة من يذهب إلى موعدٍ لاحق. مُضيفةً بخفّة:

ـ إلى الغد.

تعجَّلْتُ الذهاب ل.ملاقاة أنور.

ل.م يكن ينتظرني كعادت.ه عند باب خروج ال.مُدَرَّج. تلك ال.مرَّة، كان على مدْخَل ال.معمل. إقتربْتُ منه، مُفتعلًا ضحكة:

ـ سأفاجِئُك.

نظرت.ه ال.مُسَدَّدّة، دقَّت في رأسي جرس إنذار. قاطعني:

ـ ما من مفاجأة. أعل.م.

ـ لا بدّ أنها وصلَت اليوم متأخّرة... ل.م تستطع الجلوس في مكانها.

ـ كلّا. ل.م تصل متأخّرة. لقد اختارت ال.مكان ال.مجاور لك.

ـ ما الذي ت.هرف به؟

ـ كنْتُ هناك عندما دخلَت ال.مُدَرَّج. مكانُها ال.معتاد، كان خاليًا. وحَوْل.ه وُجِد الكثير من الأماكن الخالية.

ـ ما هذا الذي ت.هرف به؟

ـ لقد قرَّرَت أن تجلس إلى جانبك. هذا كلّ ما في الأمر.

ـ أنت ت.مْزح.

ـ أنت الوحيد الذي ل.م يَعْل.م ذلك. وأنا لسْتُ الوحيد الذي لاحظ ما حدث. كلّ ال.مُدَرَّج لاحظه.

ـ أنت ت.مْزح.

ـ حقًّا إنك بِتَّ تُكَرِّر كلامك كثيرًا.

ـ أتعْنِي أنها تعَمَّدَت الجلوس بجواري؟

إكتفَى بهزِّ كتفيْه.

قلْتُ:

ـ أنت مُخطئ. أنت مُخطئ من ال.همزة إلى الياء. ما الذي تتصوَّر أنّ فتاة

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مثل.ها تَبْغيه من فتًى مثلي. ليس بيننا ما يمكن أن يكون مشترَكًا.
إبتسم ابتسامةً باهتة:
ـ متى تعَلَّق الأمر بالفتيات، يسقطُ الذكاء وتخطئ في فهم كلّ شيء. ما الذي ي.جعل.ها ت.مضي لتجلس بجوارك، ما ل.م تكن ل.ها رَغبة؟
أوْقَفْتُه بإشارةٍ من يدي، قائلًا:
ـ أنت صديقٌ حقيقيّ. لكن غابت عنك الحقيقة. لا بدّ أن.ها تتسلَّى. تريد اختبار جاذبيّت.ها.
ـ أتظُنُّ حقًّا أنّ لدي.ها شكوكًا بشأن جاذبيت.ها؟ لَتكفيها إشارة من يدها، ليهرعَ صَوب.ها كلّ فتيان ال.مُدَرَّج.
تردَّد لحظةً، ثم أضاف:
ـ كلّهم، سوى واحدٍ.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[7]

في البدء كانت الحملة الكبرى.

في فجر الأول من يناير (كانون الثاني) سنة 1959، اعتُقِل عدّة مئاتٍ من الـمناضلين، في الوقت نفسه، وعلى نطاق القُطر الـمصريّ بأجمعه لي-جري تَجْميعُهم في جَناحٍ من القلعة أُعِدَّ كمُعتقَل. في منت-هى السِرِّيَّة وبمهارةٍ فائقة، دُبِّر اقْتناصُ زعماءِ الحركة الشيوعيّة الرئيسيين وقادت-ها، بل كذلك طَلَبَة في أصْغَر العُمر، وعَدَدٍ من كُتّاب وصحافيين يُعَدُّون تقدّميّين. بعد ذلك بثلاثة أشْهُر، اعتُقِل من فاتَ-هُم الدَوْرُ في الـمرَّة الأولى. لـم يكَد يفلتُ من الحملة الثانية أحد. أمسَى اليسار الـمصري في الأغلال.

ما كان في الحسبان أن يكون مآلُ القلعة بذاك البؤس. صلاح الدين العظيم، شَيَّدَها فوق تلٍّ يُطِلُّ على القاهرة. فبات يُشْهَد منها ما يُجاوز محيط الـمدينة، حتّى أهرام الجيزة. وإليها ي-جيء حجي-جٌ من العُشّاق، حيث يعْبُرون الفضاء حول-هم إلى الـمُسْتقْبَل، بأجْنِحة الأحلام.

تُرَى من منهم وعَى ما مثّلَه الـموقع لكُلِّ من حَكَم مصر في يومٍ من الأيام، من أهميّة حربيّة حاسمة؟ التَمَكُّن من القلعة هو ما جَعْل العاصمة على مرْمَى نيران الـمدافع، أي إحكام السيطرة على البلاد. حين ووجِه قائد الحملة الفرنسيّة الجنرال بونابرت بانتفاضة القاهرة، أصْدَر أوامرَه بقَصْف الـمدينة. لـم تَمْضِ ساعات قليلة، إلا وأُخمِدت الـهَبَّة. ويشْهَد التاريخ على ما اقْتَرَفَه بعض من حكموا مصر بلقب سلطان أو باشا أو خديوي، قبل بونابرت وبعده من فِعالٍ مماثلة. أمّا الذين قَرَّروا تحويلَ أحد أجنحة القلعة إلى مُعتقَل، فَهُم الإنكليز: آخر القُوَى الأجنبية التي احتَلّت أرضَنا.

هكذا دَخَلنا تاريخ مصر العظيم، من بابٍ خلفي...

أُودِع ضحايا الحملة الأولى في القلعة ثلاثة أشهر، ثم نُقِلوا جنوبًا إلى سجنٍ في قلب الصحراء الغربيّة، هو سجن الواحات. أُخلِيَت القلعة في أفضل وقتٍ لاستقبال ضحايا الحملة الثانية، وأنا منهم.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بين عشيَّةٍ وضحاها، وجدْتُني، طيلة اثنتين وعشرين ساعةٍ يوميًّا، رهينَ زنزانةٍ مساحتُها ثلاثة أمتار في أربعة، يشاركني فيها أنور ورفيقٌ آخر. لصْق الأرض طعامُنا ومنامُنا، وفراشُنا ل.م يزِدْ على حصيرةٍ وبطّانِيَّتَيْن.

كدْتُ لا أستطيع التحَرُّك. أنا الذي اعتَدْتُ ال.مشي الدَؤوب ثلاث ساعات أو أربعًا في اليوم، صار السُكون تعذيبًا يفوق ما لبدني من طاقة. تَوَصَّل أنور إلى حلٍّ لتخفيف التَوتُّر الذي خنقني؛ فراح يأتي باللبّادة التي أعطونا إيّاها لكي نستخدمها كوسادة، ويُمسك ب.ها بمتانة مُثَبِّتَةً إلى الجدار، لأكيل ل.ها أعْنَف الضربات بيمناي ويسراي، مثل.ما يفعل ال.ملاكم في تَدَرُّبه، لكن بسُعارٍ ل.م يتَمَلَّك أيَّ ملاكم. وهو ما جعلني أفضل حالًا.

إنْتَظَمنا في الخروج من زنازيننا مرَّتَيْن يوميًّا، ل.مدّة ساعة في النهار وأخرَى في ال.مساء لقضاء الحاجة والاغتسال؛ ما أتاح لنا التلاقيَ بنزلاء زنازِين أخرَى، وتبادُلَ ال.معلومات القليلة التي استطاع الْتِقاطَها وتكرارها أوْسَعُنا حيلة، كبعض التحليلات السياسيّة. من بشائر ذاك الربيع، أنّ من واتَتْهم الشجاعة، أخذ دُشًّا باردًا.

ل.م تَصِلْنا أيُّ معلومات عن ال.مصير الذي ينتظرنا. بل من الشائعات: شائعات متناقضة رَدَّدَها ال.مُعتقَلون بقلق معظم الأحيان. ومنهم من تَشَبَّث بَتَوَقُّعات مُبَشِّرة، وإن ل.م تكن منطقيّة. رُجِّحَ احت.مال بقائنا في القلعة لفترةٍ ما قبل أن نُنْقَل إلى مُعتقَلٍ آخر. بيد أنّنا ل.م نَعْرف متى سي.جري ترحيلنا ولا إلى أين. ربما إلى الواحات، حيث قيادة الحركة الشيوعية. ثم بلَغَتْنا الأنباء عن إعداد سجنٍ آخر في الفيُّوم شمالي البلاد وعمّا ذاقه فيه رفاقٌ لنا.

ما إن وصلَ أفراد الدفعة الأولى إلى ذلك ال.مُعتقَل، إلّا سِيقُوا بالخطوة السريعة إلى العنبر. وإمعانًا في إذلال.هم وإهانت.هم، أُرْغِموا قبل دخول.هم على الركوع مُنَكِّسي الرؤوس، وعلى الصمت التامّ، سوى عند الإجابة عن الأسئلة ال.مُوَجَّهة إليهم، وحتّى حينئذ، وَجَب ألّا يرفعوا رؤوسهم. وعوقب مُرْتكِبُ أدْنَى مخالفة، بوابل من الضربات والركلات، يرافقه سَيْلٌ من الشتائم. بعد ذلك سُمِح ل.هم بدخول العنبر، ليت.هاووا على الحصائر بينما يبلغ أسماعَهم ما يعانيه لاحِقوهم من ضربٍ وسُباب.

ل.ماذا خُصَّ نُزَلاءُ الفيّوم بمعاملةٍ أمَرَّ م.مّا يلقاه نُزَلاءُ الواحات، برغم أنّ سجن الواحات هو الذي أُلْقِي فيه بالقادة البارزين؟ أضْحَت هذه ال.مفارقة غير ال.مفهومة تَ.مُسُّنا مباشرةً، إذ صِرْنا نُرَجِّح احت.مال الترحيل إلى الفيّوم؛ فباستثناء بعض الزعماء الشيوعيّي.ن الذين أفْلَتوا من الحملة الأولى، غَلَب على جَمْعِنا شبابٌ بلا انت.ماء إلى أيٍّ من ال.مُنظَّمات التي عُدَّت هدّامة.

على أنّني ظَلَلْتُ مُتَشَبِّثًا بأمل نَقْلنا في النهاية إلى الواحات، إذ تَلَهَّفْتُ إلى

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ملاقاة من ظَفَرَتْ بهم الحملة الأولى من أعضاء مُنَظَّمَتنا. قد يكون في استخدام لفظ ال.مُنَظَّمَة للإشارة إلى جماعتنا، شيءٌ من ال.مُبالغة. إن هي إلا بضع عشرات من ال.مثقّفين والطلبة وال.مُعَلّمين، في حلقة حول كبيرهم: منير، يَنْصَبُّ نشاطهم على دراسة الكتابات الثوريّة والسعي إلى حَشْد عناصر من صفوف الجامعيّي.ن، بأكثر منه على النضال في أوساط العُمّال.

ل.م يكن في القلعة سوى اثنين منّا، هما أنور وأنا؛ وبِحُكْم أقدميّتي النسبية، قُيِّضَ لي أن أكون مُمثل مُنَظَّمَتنا في أيّ محادثات مع مُمثلي ال.مُنَظَّمَات الأخرَى. بدا لي ذلك هَزْليًّا شيئًا ما، فما اتّضح لي قطّ ما وجَب عليَّ حقًّا فعْلُه أو قوْلُه. غير أنني شَهدْتُ بما في هذا الطَقْس ال.مهيب من منطق سليمٍ إلى حدٍّ ما. فمتى وَجَب تبادلُ ال.مشورة في مسائل عمليّة على مستوى ال.مُعتقَل، يغدو من اليسير اجت.ماع ثلاثة مسؤولين أو أربعة. أمّا تنظيم جمعيّة عامّة، فمن ال.مستحيل.

ها قد قُدِّر لي أخيرًا ال.تَحَقُّق من دَوري كمسؤول؛ فمع تعاظُم احت.مال ترحيلنا إلى مُعتقَل الفيوم، صرنا مُعَرَّضِين لطقوس الاستقبال تلك، ال.مُذِلّة وال.مُهينة. أُجِّجَ غضبي تَصَوُّرُ خضوعنا بلا أدْنَى مقاومة مثل الخراف في السلخانة، فيما أمكنَنا ال.تَحَسُّبُ وتنظيم أنفسنا سلفًا للتَصَدِّي. إلا أنّه فعلٌ لن يُسْهِمَ فيه أيٌّ منّا وحده، بل ينبغي الإعداد ل.ه بصورةٍ جماعية، ما يقْتضِي قرارًا تُجْمِع عليه ال.مُنَظَّمات الرئيسيّة، أي التي بلغ تعدادُ ا.مُعْتَقَلِين من كُلٍّ منها بِضعَ عشراتٍ على الأقلّ. ثلاث منها اسْتَعَرَتِ ما بينها الكراهيّة، إذ اقتنع أفراد كُلٍّ منها بأنهم أصحاب القَول الفَصْل في الفعل الثوري. طفقوا يتنازعون الصغيرة والكبيرة حتّى وصل ب.هم الأمرُ إلى شارات مُنَظَّمات.هم. وكلّ مُنَظَّمَة ترفع شعار الحزب الشيوعيّ، مع إضافة صفةٍ لاحقة تُفَرِّق بينها وبين الاثنتين الأخريين. فإحداها حمَلَت اسم الحزب الشيوعيّ ال.مُوَحَّد، وأخرى اسم الحزب الشيوعي ال.مصريّ. أما ال.مُنَظَّمَة الثالثة، فهي الحزب الشيوعيّ العُمّالي.

ما أجْدَر تقاتُل تلك ال.مُنَظَّمات بالسخرية. ولا سيَّما أنه ل.م يست.مِدَّ مبرّرات.ه من اختلافاتٍ على أرض الواقع، بل من اعتباراتٍ نظريةٍ ليس إلّا، موضوعُها ما يُزْعَم عن طبيعة النظام الناصريّ.

أوَّل تلك الأحزاب اتَّهَم عبدَ الناصر بخيانة القضيّة الوطنيّة؛ إذ أرسَى نظامًا قمعيًّا على غرار الديكتاتوريّات الفاشيَّة، فبَرَزَ كوَجْهٍ للرأسمالية الكبرى، يستَوْجب النضال ضدَّه. وثانيها عَدَّه مُمَثِّلًا للرأسمالية الوطنيّة، مُتَ.رَدِّدًا في تَخَوُّفه من القُوَى الشعبيّة بين الاست.مرار في النضال ضد الإمبرياليّة والنكُوص، وينبغي ل.معارضيه أن يُنازلوه في معركة تِلْو الأخرَى. أمّا ثالث الأحزاب، فل.م يُخْفِ ما يُكِنُّه لعبد الناصر من إعجابٍ طَغَى على التحليل الطبقي؛ فهو ال.مُعَبِّر عن طُموحات الأمّة، وقائد النضال ضد الإمبرياليّة. بيد أن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ال.مبادئ الديمقراطيّة لا تلائم طبيعت.ه، بحُكْم نشأت.ه العسكريّة. ليس الواجب التصدّي ل.ه، بل بعث الثقة فيه، وتَرويضه، وحَمل.ه على التَحَوُّل بنظامه السياسي شيئًا فشيئًا إلى الديمقراطيّة. وعند رجال هذا الحزب أن حملات الاعتقال الشاملة التي استَهْدَفَت الشيوعيّي.ن والديمقراطيّي.ن، ليست سوى ردِّ فعلٍ لخلافٍ عابرٍ لا تقع مسؤوليت.ه على السلطة بما ل.ها من طابع استبدادي بل على الحزبين الآخرين، لانت.هاجهما سلوكًا اسْتِفزازيًّا!

كم انْفَجَرْنا ضاحكَيْن أنا وأنور، ونحن نشْهَدُ هؤلاء وأولئك في تشابكهم، كأنهم يُمثِّلون قوًى سياسيةً عُظْمَى ل.ها وزن.ها الحقيقيّ في البلاد، بينما حرم الحريّة سائر أجنحت.هم.

غير أنّ تساؤلي دار عن إمكان توافُقهم عندئذٍ على هدفٍ واحد، في مواجهة العدُوِّ ال.مُشْتَرَك. راوَدَني أملٌ في تقديرِهم ضرورة تضامُننا جميعًا، في حال نَقْلِنا إلى الفيّوم.

فاتَ.حتُ أنور في ال.موضوع. قُلْتُ ل.ه إنّني أرفض رفضًا باتًّا خضوعي للإذلال وأنا ل.م آتِ بما يُدينُني. عندي أنّ الأمر ليس موضع مناقشة. في البداية شَعرتُ منه بشيء من التحفّظ مصحوبًا بحرَج، ثم بتَخَوُّفٍ ل.م يُدارِه:

ـ أتسعَى إلى ال.مجابهة؟

منذ أيام الكُلِيّة وأنا أُدْرِكُ أنّ أنور يتحاشى ال.مواقف العنيفة. ل.م يَفُتْني نُفُورُه من مَرأى الدماء، حتى عند تشريح الجثث، وهذا مُرْهِقٌ ل.من يدْرس الطبّ، لكن لحظت.ها، وكُلِّي أمل في تضافرنا نحن الاثنين على الأقلّ خلال موقفٍ كهذا ل.م أتَوَقَّع أن ينْكَمِش على هذا النحو.

لَخَّصْتُ وجهة نظري في ضرورة اتِّخاذ موقفٍ ثابتٍ من البداية، وخطورة ما يَتَرَتَّب على عكس ذلك، من خضوعنا لنَزوات جلّادينا، إذ يُحَفِّزُهم على الت.مادي في الإساءة. ل.م يَخُنّي إحساسي وأنا أواجهه بأنّ ما يُفَرِّق بيننا ليس وجهات النظر. ال.حقُّ أنّ أنور لا تواتيهِ الشجاعة على القيام بمُخاطرة لا بُدَّ منها. خطَر ببالي ذلك القول الشهير: «حتى أنت؟»، لكنْ لَم أتفوّه بما ي.جرح مشاعره. حَسَمتُ ال.مناقشة.

ـ لا جَدوَى من تَحَدُّثِنا نحن الاثنين فيما بيننا. لا بدّ أن أمضيَ للقاء زعمائهم. أرجو أن تجت.مع كل.مت.هم على موقفٍ ثابت.

طأطأ أنور رأسه.

ـ أجل. عليك بهذا.

أوَّلُ من نجَحتُ في الوصول إليه من الزعماء، مُمَثِّلُ الحزب الشيوعيّ العُمّاليّ وهو فعلًا من العُمّال. رَجُلٌ طَيِّب القلب، كما يَدُلُّ مظْهَرُه. رأيناه خلال فترات

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

التَرَيُّض، يروح جيئةً وذهابًا في جلباب أهل الريف، مُوحِيًا بأنه مُنْسَجمٌ دائمًا على غرابة الأمر بل سعيدٌ بوجوده في ال.مُعْتقَل. أنور استنتج أنّ.ه بالفعل راضٍ عمّا أدَّت إليه التوزيعات الجُزافيّة لل.مُعْتقَلين، من الدَفع به كناطق بلسان حزبٍ أُودِع زعماؤه في مُعْتقَلات غير مُعْتقَلنا، حيث أصبح هو الزعيم. فضْلًا عن هذا، غَلَب عليه فَخْرُه بأصول.ه الشعبيّة، وبقِشْرة الثقافة ال.ماركسية التي است.مات ليكتسب.ها، ومن ثمّ اعتداده بنفسه.

خلال إحدى فترات التَرَيُّض، لَحِقْتُ به، مُبْديًا في مُسْتَهَلِّ كلامي رؤيتي للأمور. أنصَت إليَّ أثناء سيرنا ذهابًا وإيابًا في ال.ممّر الطويل الفاصل بين الزنازين، وفي يده غُصْن شجرةٍ رقيق تساءلتُ أين وجده وقد نَزَع منه أوراقه، وراح يستخدمه كأنّه مِذَبَّةٌ أو شيءٌ من هذا القبيل، وإن ل.م يوجَد ذبابٌ يُذَبُّ. خَطَر لي أنه يَبْغي فعل أيِّ شيءٍ بيده. في الأغلب عمره ضعف عمري. وما مضت عشر دقائق، حتّى لاح لي أنّ.ه حريص على تذكيري بذلك.

عندئذٍ أن.هيت كلامي، مُقْتَنعًا ب.أنه قِيل عبثًا.

ناظرًا إلي بإشفاقٍ وسخريةٍ معًا، قال:

ـ أيّ.ها الرفيق، إن فَهِمْتُ اقتراحَك، فأنت تريد أن نفعل فعل الإخوان ال.مسل.مين.

ـ إن كان في سلوكهم كرامة، فما الضرر؟

ـ الإخوان ال.مسل.مون عجَزوا عن تحليل ال.موقف الذي وضعَهم فيه عبد الناصر. لقد سامَهم صنوفَ العذاب، ودُمِّروا بدنيًّا ومعنويًّا. مستحيل أن نأتيَ بمثل ما فعلوا. أوَّل ما ينبغي أن نسْت.هدفه، اجتياز ما يَتَهَدَّدُنا بأقل ما يمكن من خسائر.

ـ لكنْ إن أُذْلِلنا في ذلك ال.مكان، عند وصولنا، فماذا نفعل؟ لن نركع. لن نُحني رؤوسنا.

ـ هي لحظةٌ عسيرةٌ، تلك التي قد تَمُرُّ علينا، لكنها سوف تَمُرُّ. كم مَرَّت علينا لحظات مثل.ها. ما هو أثمن ما لدينا؟ الكوادر. هم الذين يُسْتَوْجَب الحفاظُ عليهم. قضينا سنواتٍ في استقطابهم وتكوينهم وإعدادهم للنضال ال.مُقبِل.

ـ لكنّ النضال، هو هذا: هو التصَدِّي لأولئك الذين يرُومون تحطيم معنويّاتنا.

ـ أيّ.ها الرفيق، أكرِّر لك: لن نفعل فعل الإخوان ال.مسل.مين. نحن لا نَنْشُد استشهاد أيٍّ من رجالنا. لا نمْلِك تبشيرهم بجنَّةٍ ينطلقون إليها، حيث ي.جدون أسرابًا من الحوريّات في انتظارهم باشت.هاء.

ـ ما ال.مطلوبُ الشهادة، بل حِفْظ كرامتنا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ طال.ما بقينا خلف القضبان، فإنّ علاقات القُوَى ليست في مصلحتنا. أعداؤنا كُثُرٌ، في وزارة الداخلية وغيرها. لَسَيَسُرُّهم أن نَقْتَرِف هذه الحماقة الفادحة. لن نأتي بما يُرضيهم.

ـ والآخرون؟ الأحزاب الأخرَى، هل يأخذون بالرأي نفسه؟

تظاهر بأنه ل.م يَسمعْني.

ـ هذه أوَّل مرَّة تُعْتَقَل فيها، ولن تكون الأخيرة. ي.جب الت.ييز بين ما هو أساسي وما هو ثانوي.

فارَقتُه لأخطو بضع خطواتٍ قبل ن.هاية الجَوْلة.

عند عودتي إلى الزنزانة، أبْلَغْت أنور ما دار بيني وبين الزعيم ال.مُبَرَّز. طأطأ رأسه كمن يقول إنه تَوَقَّع ما جرَى، من دون أن يُبَيِّن ارتياحه. هو من ناحيت.ه حاول في التقائه بعض شباب الأحزاب الأخرَى، تكوين فكرةٍ عن كيفية استشْرافهم ل.ما ينتَظِرنا من «طُقُوس الاستقبال» في مُعْتقَل الفيّوم. تَ.مَيَّز ردُّ فعل كلٍّ منهم بالتَمَشِّي مع مزاجه الخاص. ما من دلائل على سبق التناقش فى الأمر، وعلى الإعداد لتعبئةٍ، تَحَسُّبًا ل.ه.

هذا ل.م يَ.خْلُ من دلالةٍ في حد ذات.ه. إن ل.م يَجرِ الإعداد لأيِّ تعبئةٍ، فلأنّه ل.م تتوافَر أيُّ نِيَّة لدى القادة لخَوْض معركة. لَوَدِدت أن أعرف ما جدوَى عناصر ي.حنون الرؤوس بهبوب أوَّل عاصفة؟!

رُحْت ضحية إحباطٍ طاغٍ. ذلك ال.مسؤول العُمّالي البالغ من العمر ضعف ما بلغت، الذي عاش حياةَ كفاحٍ وخَبِر معتقلاتٍ أخرَى، وال.مُفتَرَض أن يكون قدوةً لي، ل.م يُلْهِمْني شيئًا. فهل ل.م يكن نزولي ساحة النضال، إلّا لأجِد إلى جواري أمْثالَه؟ أحْسَسْتُ بأنّني خُذِلْت.

لَكَم وَدِدت لقاء منير، بأسرع ما يمكن. إسْتشْعَرْتُ حاجة ماسَّةً إلى البَوْح ل.ه بما يؤل.مني ويُخَيِّب أملي ويبْعَث فيَّ الشكوك. قبل اعتقالنا، كُنْت أذهب للقائه في أيِّ ساعةٍ من ساعات الليل أو النهار. إن كانت لي هواجِس لا معنى ل.ها أو ردود أفعالٍ مُبالغ فيها، فعندئذٍ كان الوحيد الذي يمكنه التخفيف عنِّي أو تَصْويب رؤَياي، مُوَضِّحًا لي ملامح ما غَمَض عليّ، لكنّ منير ل.م يَكُنْ قريبًا، بل في آخر الدنيا: في الواحات.

مرَّ وقتٌ طويل على نزول الليل. ل.م يَغمض لي جفن. ما من شيء أنشغل به في الظلام الصامت. ل.م تكن القراءة ممكنة، ثم إنه ل.م يتوافر ما يُقرأ، سوى رسائل تجيئنا من الخارج لتُوَزَّع علينا بعد أن تجريَ قراءتُ.ها بعيون الإدارة. بعضٌ منّا تَلَقَّوا منها بين الحين والحين، أمّا أنا، فكُلّ يوم، ظلَّت نادية تَكْتب ل.ي، كلّ يوم.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في لقاءاتنا، كُنْت أنا من يتكل.م. لكنْ هنا، هي التي تتَواصل معي، في رسائل مُطَوَّلة ترْوي على صفحات.ها ما تفعل.ه وما تُفَكِّر فيه، لكي أُبْقِيَ إحساسي بأنني جزءٌ لا يتجَزَّأ من حيات.ها اليوميّة، وإن من أضْيَق زاوية.

تَجمَّعَت لديَّ من رسائل.ها رِزمة. ل.م أكن أقرأ أيًّا منها إلا مرَّةً واحدة، في لحظةٍ فريدة خاطفة، فيها أسمع كل.مات.ها بصَوْت.ها، فتسْتَحْضِرها الكل.مات. أمّا تكرار القراءة، فكي أُؤكِّد شعوري بغياب نادية؛ صار للرزْمة إذًا شيئًا فشيئًا سِحْرٌ طلسمٌ غامضٌ. عَزَمْتُ على ألّا أُعيد قراءت.ها إلّا معها هي، قبل أن نَعْهَد ب.ها مثل.ما الذُخْر إلى أنجالنا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[8]

فاجأَ جلوسُ نادية بجواري في ال.مُدَرَّج، كلَّ من فيه. أمّا أنا فظَللتُ طيلة النهار أتساءل عمّا دعاها. ل.م يكن لدى أنور شكٌّ: أنا أُعْجِبُها. لديَّ أنا، ل.م تكنِ الأمور بهذه البساطة.

ملَكَت نادية القدرة على فعل ما يحلو ل.ها. إن أتَت هي نحوي، أنا الذي على عكس آخرين وما أكثرهم. ل.م أُلاحِقْها، فإنّما لتأكيد تَمَيُّزِها ذاك، لكي تُظْهِر للجميع أنها تتوجّه نحو من تُريد. وكذلك لتُوحِي لي بأنّ.ها تَتَوَقَّع انضمامي إلى مَوْكِب.ها.

فارقَتْني وهي تُلقي إليَّ تلك العبارة الغامضة: إلى الغد، ربما لكي أبْتلع الطُعْم وأوَطِّن نفسي على ملاقات.ها في اليوم التالي إلى جانبي، ثم أفاجَأ بأنها استرَدَّت مكانَها ال.معتاد في الصَفِّ الأول، وتُصبح البلبلة التي سبَّبَتها لي، مادة لل.مزاح في حديثها مع إحدى زميلات.ها.

ل.م أُوتَ الجرأة على الظنِّ أنّني سألاقيها في اليوم التالي في ال.مكان نفسه. في قرارة نفسي، تَوَقَّعت أن يكون ال.مكان خاليًا، بل تأكَّدْت. تَصَوَّرْت اختفاء نادية من حياتي بالسرعة نفسها التي اقْتَحَمَتْها ب.ها. لحظة التواطؤ تلك... ذلك العِطر الذي تَخَلَّلني كُلِّي من أدنايَ إلى أقصاي... تلك الابتسامة التي خَصَّتْني ب.ها طيلة ساعتَيْن: كلّ ذاك ما كان إلّا سرابًا. وسأتَغَلَّب على ذكراه.

في اليوم التالي، وصَلتُ بعد بدء ال.محاضرة بدقيقتَين أو ثلاث دقائق، لأجِد نادية جالسةً، وأوراقها، مثل.ما في اليوم السابق، تَشْغَل ال.مكان الذي حَجَزَتْه لي إلى جانب.ها. حين ل.محَتْني بطرف عينها، أفْسَحَت لي ال.مكان تلقائيًّا وهي تواصل الكتابة. جلَسْتُ، ولا أعرف ل.ماذا شعرْت فجأةً برغبة في البكاء.

جَهَدْتُ أن أدَوِّن ملاحظات، وال.مُحاضر يُسرِع في كلامه فوَجَب اللحاق به. خلال وقفةٍ ل.م تتَعدَّ الثواني، اقترَبَت نادية بوجْهِها منِّي:

ـ فاتَك مرجِعان هامَّان ذكَرَهما ال.مُحاضر في البداية.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قَطُّ ل.م يكن أحدٌ قد مال على كتفي من قبل، ليتاكَّد من أنني دَوَّنْتُ محاضراتي كما ينبغي. إنعقد لساني فل.م أنْطِقْ، وإلّا فلكان بصوتٍ لن يفوتَها ارتجافُه.

ما إن انصرَف ال.مُحاضر، حتّى أصْدرَت قرارَها:

ـ سأُمْليك العنوانَين اللذين ذكَرَهما في البداية.

ـ لا عليكِ. سأتَصَرَّف أنا...

ل.م تُرِد أن تَسْمَع ما ت.مت.متُ به. إكْتَفَت بالابتسام.

ـ هيّا، دَوِّن!

ثم قبل أن يسَعَني وقتٌ لأخْذ نَفَسي، بادَرَتني:

ـ إن ل.م أكن قد أسَأتُ الفَهْم، فأنت شيوعيّ؟

تَصَلَّبْت. أهو الفضول؟ أهي رغبت.ها في رؤية مخلوقٍ شيوعيٍّ عن قرب، ما يُفَسِّر اهت.مامَها بي؟

ما اسْتَطَعْتُ أن أجيب به، ل.م يتَعَدَّ قَوْلي:

ـ هذا يقع تحت طائلة القانون.

ما هي بالتي تُلْقِي السلاح، بل ستَنْتَزِع مني سلاحي، بعينيها اللتين است.مرَّت ت.ث.بِّ.تُ.هما في عينيّ. إستَسلَمت.

ـ في الحقّ إنّني لا أعرف إن كُنتُ شيوعيًّا. ربما الأصَحُّ أن يقال: ماركسي.

ـ أليس هو الشيء نفسه؟

كانت لحظة دخول ال.مُحاضر التالي، ليتاح لي إذن التَوَصُّل إلى إجابةٍ ملائمة. إلّا إن نسيت هي السؤال، خلال تلك الساعة.

ل.م تنْسَ. بعد مُضِيِّ ال.محاضر، التفتَت إليّ وهي تَجْمع أوراقها.

ـ أل.م يكن ماركس من... ابْتكَر الشيوعية؟

ـ بَلَى.

ـ وإذن، شيوعي... ماركسي، ما الفارق؟

ـ من الصعب الإجابة ببِضْع كل.مات. قد نَنْجَذِب إلى فِكْر ماركس، من دون أن نجعل منه عقيدةً أخرَى. ليس ماركس بِنَبِيٍّ. ولا كذلك ينبغي الانخراط في مُنَظَّمةٍ مُنْضَبِطةٍ قائمةٍ على تَدَرُّج القيادة، مثل.ما في الجيش.

ـ آه. ما يقع تحت طائلة القانون، هو مُنَظَّمات من هذا النوع؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ في الواقع إنه يوجَد عددٌ من هذه الـمُنَظَّمات، تَفْتقِر كُلُّها إلى الـمشروعِيَّة، لكنّـها في الوقت الحالي مقبولةٌ إلى حدٍّ ما.

ـ ألديكَ وقتٌ بعد حِصَّة الـمعمل؟

لكأنـها سَتَدْأب على مفاجأتي. ومن دون أن تسمع مني إجابة، استطرَدَت:

ـ فلْنَلْتَقِ في الحديقة الزراعية.

لـم أصدِّق أُذُنَـيّ.

الحديقة الزراعية، لـم يكن فيها أيٌّ مـمّا هو زراعي. لكنْ على هذا النحو جَرَت الإشارة إليها. تَقَع خلف مباني الكُلِيَّة الإدارية، وتَزْخَر بأشجارٍ ضخمة تفيء ظلالُها الـمُسْتَحَبَّة على الطلبة أثناء فترة الظهيرة الـمُلتَهبة، الفاصلة بين فترة الـمحاضرات الصباحية والفترة التالية، بما فيها حصَّة أعمال السنة. لكن قَلَّ زُوّار الحديقة. أغلب زملائي آثروا التلاقي في شرفة الكافيتيريا الـمسقوفة ليلتـهموا الساندويتشات ويرْتَشِفوا الكوكاكولا، وكُلُّها مُحَرَّمات عليَّ لضيق إمكاناتي. لذا ظلَلْتُ في أغلب الأوقات وحدي أتَرَدَّد على الحديقة، لأقرأ أو أحلُم، مُتمَدِّدًا على الحشائش. الحقّ أنّـني لـم أكن وحدي تـمامًا؛ فقد رأيْت غيري يتوارون بين الأشجار، اثنين اثنين. عُرِف ذلك الـمكان كمأوَى للعُشّاق. بل بدا ذاع صيتـه.

تَـمتَمتُ:

ـ الحديقة الزراعيّة... تظُنِّيـن...؟

لـمعت عيناها ببريق التَحَدِّي:

ـ ولِـم لا؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[9]

مَرَّ نحو شهرين على اعتقالنا في القلعة. ذات ليلة، وقد عُدْنا من جَوْلة ال.مساء وانْغَلَقنا في الزنازين، نتأهَّب لإفراغ القِصَع التي نتَناول فيها العدس، بلَغَ أسْماعَنا على غير ال.معتاد وَقْعُ أقدامٍ في الفِناء الخالي، وكل.مات ضابطٍ يرْفع صَوْتَه ليسْمعَه جميعُ ال.مُعْتقَلين، يُعْلِمنا أن بعضًا منّا سيُنقَلون إلى مكانٍ آخر.

للتَوِّ نسِيَ كُلٌّ منّا همومَه، ليتَرَدَّد في كل الزنازين سؤالٌ واحد: من سيرحل ومن سيَبقَى؟ شَرَع الضابط في قراءة الأسماء، ومن أوائل.ها اسمي. لكن سرعان ما طَغَى على سروري قلقي من احت.مال ألّا يكون أنور معي. أحسسْت به إلى جواري مُتَوَتِّرًا جدًا. ثم جاء الفَرَج، بسماع اسمه. عانَقْتُه بقوّة، وثالثُنا في الزنزانة يُلْقي علينا نظرةً حانِية. ل.ملمنا أمْتِعَتَنا، في انتظار استدعائنا.

وجدنا في الفناء حوالي سِتِّين، جُمِعوا ليُرَحَّلوا. تَبَيَّنت على الفور تركيبة القافلة. كادت ال.مجموعة بأكمل.ها تكون من الشباب: طلبة، وأكثر منهم التلاميذ. ل.م نعرف ل.ماذا يُفَرِّقون بيننا وبين رُوّادنا من الكوادر، ولا إلى أين سيُسار بنا بعيدًا عنهم. تُرِكْنا واقفين ساعات طويلة، لا ندري ما في انتظارنا؛ حتى ت.مَنَّيْنا أن يُدْفَعَ بنا إلى الشاحنات ونمضي إلى غايتنا مهما كانت، ويتَّضِح ما يُراد فعْلُه بنا.

في الثانية صباحًا، بدأ تنفيذ إجراءات الترحيل. أوَّلًا قُيِّدْنا بأغلال. ثم قُيِّدْنا إلى بعضنا بعضًا بسلاسل دقيقةٍ تَمرُّ من خلال الأغلال بمعاصمنا. وبعدها كُوِّمْنا في ثلاث شاحنات تتابَعَت في خروجها من القلعة.

تلك الشاحنات كُسِيَت بسواتر كثيفة مُنِعْنا من إزاحت.ها، لكنّني حظِيت بموقعٍ لصيقٍ ب.ها، وما كُنْت لأحْرم نفسي رَفْع جزءٍ من الساتر كيفما اسْتَطعتُ، مُسْتَرِقًا النظر إلى الشوارع التي نَمُرُّ ب.ها. وشيئًا فشيئًا، حذا الآخرون حَذوي.

في الليل الذي قارَب نهايت.ه، أمكن تَبَيُّن بعض ال.معال.م: الشوارع خالية، وقد مَرَّ وقتٌ على إغلاق ال.متاجر، برغم اعتياد أصحاب.ها البقاء حتّى ساعة متأخّرة. وما من ضوءٍ يشِعُّ من نوافذ ال.منازل ال.مارَّة أمامنا بسرعة البرق.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بديهِيٌّ أنّ ال.موعد اختير بحيث لا يلْحَظ الرَكْبَ أحد، فلا يترك أثرًا يُذْكَر.

لطال.ما ظَنَنْت.ها لا تنام إلا بعين واحدة، القاهرة الشعبيّة التي عرفْتُها حقَّ ال.معرفة، لكثرة تجوالي فيها. لكنّها ساعت.ها ل.م تَعُدْ سوى شبحٍ ل.مدينةٍ ليس فيها أُناسٌ نلاقيهم.

بغتةً خَطَر لي أننا نحن الأشباح. لا حياة لنا داخل هذه الشاحنات التي تَ.مضي بنا إلى مصيرٍ لا نعرف عنه شيئًا. الحياة الحقيقية تنبض في هذه البيوت النائمة في صمت، طَيَّ ملايين من جُفون البشر ال.مُطْبَقَة، التي سيفتَحون.ها بِبَدْء دَمْدَمة ال.مدينة، حيث يَلْقون آلافًا من مآسي الحياة اليومية. لكن من حظِّهم الرائع أنهم يواجهون.ها أحرارًا طُلَقاء.

من فرط كثافة الصمت، خُيِّل إلينا أنه يُطْبِق علينا في سَي.رنا. بل إنّ أزيز ال.محرّكات ل.م يترك فيه أثرًا. لَكم ودِدت أن أجد أنور إلى جانبي. لكنه قُ.يِّد إلى جَ.معٍ آخر وُضِع في شاحنةٍ أخرَى.

غير معقول، هذا ما قلت.ه لنفسي: غير معقول. كلّ هؤلاء الذين أُغْلِقَت عليهم النوافذ في ال.مدينة النائمة، لا يمكن ألّا يكون منهم واحدٌ ل.م ينَمْ بعدُ، أو هَبَّ من نَوْمه بمرور هذا الرَكْب الغريب مَرَّ العاصفة. تساءلْت إن كان هذا ال.مستيقظ قد جال في ذهنه أنّ الشواحن ال.ماضية من موقعٍ سِرِّيٍّ إلى موقعٍ سِرِّيٍّ آخر مُحَمَّلةٌ بأسرَى لا ذنب ل.هم سوى أنّ.هم يت.مَنّون لَ.ه حياةً كريمة. غير معقولٍ ما نحن فيه، ننوء بآمالٍ نبيلة لا يشاطرنا إيّاها أحد.

لا بدّ أن تكون نادية نائمةً هي الأخرَى. وبعد بضع ساعات، ستذهب إلى الكُلِّيَّة، حيث تست.مرّ ال.محاضرات، بدوني. إنما ظَلَلْت في ال.مُدَرَّج، عبر رسائل.ها إليّ. الإحساسُ الذي بعَثَته فيَّ نادية بأنني أحيا حيات.ها بمثل ما تحياها هي، وإخلاصُها لي، كُلُّ هذا تجاوز أقصَى آمالي. كم ساءلتُ نفسي إن أمكن أن أُعَبِّر ل.ها يومًا عن الشكر الذي يَغْمُرُني متى شَغَلَت فكري، وعن سعادتي بمعجزة وجودها.

إن كانت وِجهَتُنا الواحات، فلَوَجَب أن نبلغ منذ وقت طويل محطَّة القاهرة، حيث يُلْقَى بنا في قطارٍ مُتوجِّهٍ إلى الصعيد. أفْزَعَني تَصَوُّر ذلك السَفَر في مقطورة الب.هائم، وأوضاعه الشاقَّة، حيث يُرغِم أيٌّ منّا، لقضاء حاجت.ه، سائرَ ال.مُقَيَّدين على تَحَرُّكٍ حلزونيٍّ، كي يمكنه الذهاب إلى ال.مرحاض.

بل كلّا. ل.م نكن في طريقنا إلى الواحات، فالرَكب غادر ال.مدينة مارًّا بالضواحي ـ إلى عَراء الريف، في طريقٍ غير واضح، يمُرُّ هنا وهناك بقرية شاردة. تلاشَى ما راودني من أملٍ ضئيلٍ في لقاء منير والرفاق، في الصحراء الغربية.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وصَلْنا في مطْلَع النهار. تَوَقَّفَت الشاحنات، وأُطْفِئَت محرّكاتُ.ها. ومن حَولنا، بلَغَت أسماعَنا أوامر، ودبيب خطوات فرقةٍ تَذْرَع ال.مكان. ظلَلْنا في الانتظار إلى ما لا نهاية، مُتَوتِّرين جميعًا، وصامتين. بِتْنا في مواجهة خطرٍ يَتَهَدَّدنا بأقْرَب ما يكون، ونحن نعل.م أنّنا عندئذٍ عُزَّلٌ من السلاح ت.امًا.

حين أُنْزِلْنا أخيرًا من الشاحنات إلى فِناءِ ذلك ال.مكان، أدْركنا أنه أقْرب إلى معسكرٍ حربيٍّ منه إلى سجن. أبْنِية مُقَوْلَبة، مُحاطةٌ بجدران مُنخفضة من ناحية، ومن الأخرَى بسياجٍ من الأسلاك الشائكة. وفي كُلِّ ما حَوْلنا، بقاعٌ شاسعة لا أثر فيها لحياة. ل.مْ يَبْقَ موضعٌ للشكّ. وصَلنا الفيّوم.

سبَق لي أن عِشْت ال.مشهد، في أحد أفلام السينما الأميركية. سِجْنٌ انت.هى الأمر بنُزَلائه من ال.جُناة إلى التَمَرُّد، وال.موت في سبيل الشرف.

أمَر شَخْصٌ ل.م أره بأن نحُرَّرَ من السلاسل والأغلال، ويُطاف بنا أمام كَوْمَةٍ هائلة من حقائِب تحوي أمتعتنا الشخصية. إسترَدَّ كُلٌّ منّا ما ل.ه، لنمضيَ فننْتَظِم في صَفٍّ لا يتحرَّك. و حَوْلنا في كُلِّ مكان، وقَف جنودٌ، حاملين السلاح. أُتيح لي من الوقت ما يكفي لأل.مح أتور على البُعد خلفي وهو لا يزال يبحث عن حقيبت.ه. ثم انْفَرَط الصَفّ.

في البداية اختَرَقْنا عنْبرًا ي.حْجُب ذلك الذي هو مأوانا، فسرعان ما أفْضَى بنا إليه.

ل.م يختلف البرنامج عمّا كُنّا نتَوَقعه بتأثير ما بلغَنا في القلعة. أُمِرْنا بالركوع، كُلٌّ أربعةٍ في صَفّ، صامتين مُخفِضي الرؤوس، يدور حوْلنا ال.حُرّاس العديدون، وهم يكيلون لنا اللعنات أو الركلات. وأمام مدخل ال.مبنَى، ي.جلس وَحْدَه ضابطٌ كما يَدُلّ زِيُّه واضعًا نظّارَة سوداءَ سميكة، ولا ينطق بحَرْف. هو النقيب حمدي.

ألْقَيْت نظرات سريعة على وجوهِ مَن على يميني ويساري. شُبّان بلا كَبِيرِ صلةٍ بالسياسة، زائغي الأبصار في انتظار استدعائهم. لأمكنَتِ ال.مُواجَهة بشيءٍ من الكرامة. إن شاء قادتنا البارزون، فلَعُقِدت في القلعة جلساتٌ لإعداد الشباب ل.ما ينتظرهم، لحفْزهم على انْت.هاج مسْلكٍ غير مُسْتَفِزّ، لكنْ من دون ذُعْرٍ لا محَلَّ ل.ه. ل.خرجوا من ال.موقف أشدَّ ثباتًا. هذا ما اسْتُوْجِب من الزعماء الشيوعيّي.ن. والآن فات الأوان.

سبَقَتْنا الصفوف الأولَى إلى جَوْف العنبر. وَضَح ال.مَشْهَدُ أمامي. بنظرات وجيزة، لاحَظْت ما ي.جري في مدخل العنبر: نُدعَى إلى القيام، ومتى نبلغ موضع النقيب، نُقَدِّم حقائبَنا التي يُؤخَذ في التنقيب داخل.ها باسْتِهانة. تَصادَر بعض الأشياء، ويقع بعضها على الأرض، ليتَلَقَّى صاحب.ها ركلةً أو صفعةً وهو يلتقطها.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تساءلت عمّا يُمكن أن يُصادَر من بين أشيائي. لا وَرَق ولا قَلَم، ولا أيٌّ ممّا قد يَبعَث الشكّ أو يستثير من حُرّاسنا غضبًا لا مَحَلّ لـ.ه، لكنّ حقيبتي حَوَت رِزْمة رسائل نادية. تجَمَّد الدم في عروقي. لَما احْتَمَلْت أن تُبَعْثَر على الأرض صفحاتٌ ظَلَّت هي طيلة ساعات وساعات تسَوِّدُها بكل.مات.ها لي، ال.مُفْعَمة بحنانها، الناطقة بحُبِّها ال.مُخْلص.

ل.م يَبْقَ لي إلا دقائق أتَّ.خِذ في.ها قراري، قبل أن ي.حين دَوري ليبْطشَ بي ال.جلّادون. بلا تفكير، فَتَحْتُ حقيبتي وتحَسَّسْت محتويات.ها بحثًا عن رِزمة الرسائل، لكيلا أُخْرِج غيرها. باتت تفصلني عن النقيب حمدي أربعةُ أمتارٍ أو خمسة. تَرَقَّبْت لحظَةً أسْتطيع فيها قَطْعَ طريقي إليه من دون السجّانين. وثَبْت لأصير في مواجهت.ه.

أرَيْتُه الرِزْمة، وخرجَت منّي الكل.مات:

ـ هذه رسائل تَلَقَّيْتُها في القلعة. عليها كُلِّها ختْم الرقيب. أوَدُّ الاحتفاظ ب.ها.

ل.م يَدُر ببالي ولو لجزءٍ من الثانية أنّني أخاطر بالتعَرُّض لعقوبة، أن أحد الحرّاس قد ينْقَضّ عليَّ ويُوسعُني ضربًا، بسبب جرأت.ي، بل أن يُصادِر النقيب الرسائل أو يُمَزِّقَها أمام عينَيّ، لأنّني خالَفْت النظام كَي أُخاطِبَه. كُنْت مَسْلوب اللُّبِّ، حاضرًا بغيابي. تركَّزَت عيناي على وجه النقيب، بنظّارت.ه السوداء.

لا شكّ في أنه هو نفسُه، إذ بوغِت، تردَّد لحظةً، لكنه ظلَّ بلا حراك، ث.قيلًا في جلْسَتِه، من دون أن يُبْدِي أيَّ تعبير.

ل.م تَبْدُرْ منه غير إشارةٍ خفيفة بذَقْنه في اتجّاه الباب تعنِي إمكاني الانصراف. ذُهل ال.حُرّاس ول.م يُدْرِكوا سوى فعْل النقيب بارتضائه مروري فوَجَب عليهم مثل.ه. وَلَ.جْت العنبر، من دون أن يتعَرَّض لي أحد.

إنّما بعدئذٍ تَمَلَّكني إعياءٌ لا يقاوَم.

لكأنَّني احْتُويت في أحد ال.هناجر، وحيث اصْطَفَّت على جانبَي ممَرٍّ ضَيِّق أسِرَّةٌ خشبيَّة، اختار كُلٌّ منّا أحَدَها ليرْتَمي عليه في سكون؛ فخَيَّم صمتٌ ثقيل ل.م يكن مَرْجِعه إلى الأوامر وحدها، بل كذلك تَجاوَب مع انكسارِنا جميعًا، ما مُنِينا به في داخلنا من هزيمة.

قادَتْني قدماي داخل العنبر. وجَدْت آخرَ سريريَن في الصَفِّ الأيسر شاغرَين. إخْتَرْتُ الأقْربَ إليّ وت.هاوَيْت عليه، مُحْتضنًا رِزْمة الرسائل. ثم وضَعْتُ حقيبتي على الفراش الآخر لصْق الجدار ظنًّا أنّ أنور سيَحْدِس بأنّ.ني حَجَزْتُه ل.ه، حين يلحق بي بعد قليل. إسْتَغْرَقْت في نومٍ عميق.

صَحَوْت والعنبر يَطِنُّ بأصوات الرفاق في ثرثرت.هم. لقد جرى تسْكين كُلٍّ من كانوا في الركْب، خلْف الباب ال.مُوصَد. وبدأ نبض حياتنا الجديدة. كان أنور

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

جالسًا على السرير ال.مجاور، غارقًا في التفكير، في انتظار استيقاظي.
ما إن فَتَحْت عينَيّ، حتّى أعْرَب لي عن إعجابه:
ـ حقًّا إنك مُدْهش. تستطيع أن تنام أيْنما كُنْت.
ـ كما تعل.م، فإنّ النوم هو وسيلتي للدفاع عن نفسي.
ـ ما فَعَلتَه هذا الصباح، ل.م يكن دفاعًا عن النفس فحَسْب.
فَتَّشْت في ذاكرتي وهي ل.م تَزَلْ مُشَوَّشَة.
ـ ماذا في هذا الصباح؟
ـ ما فَعَلْتَه بالنقيب حمدي.
ـ ما أدْراك؟ كُنْتَ بعيدًا خلفي.
ـ هو موضوع حديث الجميع هنا.
ـ لكن أيّ حديث؟ كيف عرفوا؟
ـ سألوني: ما هي هذه الرسائل؟ وقُلْتُ ل.هم.
ـ لكن ل.م تَقُلْ ل.هم كُلَّ شيء.
ـ لقد صُعِقوا. تقفزُ في حَنَك السَبْع، من أجل رسائل غرامِيَّة؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[10]

ما أقسَى الأيّام الأولَى، ونحن ل.م نزل مُتَخَبِّطِين، بتأثير الصدمة.

ما غادرنا العنبر، سوى لساعتين قصيرتين تقاسَمَتْهما جَوْلتا الصباح وال.مساء، واختلف تَوقيت.هما من يومٍ لآخر، على ألّا تتَفَّقا مع جَولتي نُزلاء العنبر الآخر. خلال كُلٍّ منهما طفِقْنا نُسْتَحَثُّ باللسان وباليد، ونحن دائمًا مُتَوَجِّسون؛ نصْطَفُّ لدقائق معدودة في طوابير، مرَّتَيْن: مَرَّة أمام ال.مراحيض وأخرى أمام ال.مغاسل؛ ومتى حان دَوْر أيٍّ منّا، وَجَب أن يغْتَسِل ويَقْضي حاجت.ه على وجه السرعة. كذلك انْبغَى ألّا تُنْسَى مهمَّة الغسيل، والاستحمام ، وإن يكن مرَّة واحدةً في الأسبوع؛ فما أمكن إلا التناوُب، لقلّة عدد أماكن الاغتسال. كذلك داوَمْنا على إخراج أغْطِية أسِرَّتنا لت.هْوِيَت.ها، ولنُمسك اثنين اثنين بكُلٍّ منها ونَنْفض عنها فتات الطعام، الذي نتناوَلُه عادةً فوق أسِرَّتنا. ثم نتَوَافَر جميعًا كُلٌّ بدَوْره على تنظيف أرضِيَّة العنبر الإسمنتية بال.ماء، وحَمْل الدلاء ال.ملأى بالبَول إلى ال.مراحيض وإفراغها وغسل.ها، والتَزَوُّد من ماء الشرب.

أنجزنا تلك ال.مهمّات وعبارات الاست.هزاء تَقْرَع آذاننا، واللكمات تُ.كال خَبْط عشْواء إلى أيٍّ منّا. تحَتَّم أن ننشغل بما نؤدِّيه، ونحن نبذل أقصَى جهدٍ لتَجَنُّب الضربات وتجاهل ألفاظ السُباب، مُتَعَجِّلِين رجوعَنا إلى العنبر، لتحمينا أبوابه عندما أُغْلِقَت أخيرًا على عُواء عُصْبة السجّانِين.

ل.م يكن معظم أصحابي سوى تلاميذ ظلّ يشغل.هم تساؤل.هم عن السبب في مآل.هم إلى ما هم فيه. ليسوا بذوي مفاهيم سياسيّة محدّدة أو انت.ماءات حِزبّ.ية. كي يُعَدّوا مناهضين للسلطات.

على الأرجح أنّ أسماءهم أُدْرِجَت في قوائم أعَدَّها مُ.خْب.رو ال.مباحث لكُلِّ مدرسة، لأنهم طليقو اللسان، تَذَمَّروا على مَسْمعٍ من زملائهم من سوء الأوضاع أو من قرارٍ تعَسُّفي اتخَّذه ناظر ال.مدرسَة، وفي غدٍ سيكون منهم ال.مُحَرِّضون.

لذا بُوغِتوا في ساعة متأخّرة من الليل، وسط أهاليهم ال.مذعورين، واقْتيدوا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

دون أمرٍ بالقَبْضِ عليهم أو أيِّ مُسْتَنَدٍ قانونيّ إلى جهةٍ مجهولة. وها قد أُلقِي بهم بيننا، إلى أجلٍ غير مُسَمَّى، بعد مرورهم بال.مَطهَر، في القلعة.

ظلَّ بعضهم منفردين بأنفسهم، كُلٌّ على سريره. وتَجَمَّع آخرون اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة على سرير أحدهم. ثم بدأ بعضهم يستفيقُ ويت.مل.ملُ. عبَّر الواحد منهم والآخر عن سخطه على إذلالٍ يعانونه. وإذ جَهَروا بشَكواهم، فمنهم تكَوَّنَت جبهة رفض. غَلَبَت نزعة ال.مُقاومة، بعد فُتورٍ خَيِّم عليهم في الأيّام الأولَى. لشد ما رقَّ قلبي، بإدراكي أنهم عَدُّوني من تلقاءِ أنْفُسِهم واحدًا منهم.

مَوقِفِي أثناء طقوس الاستقبال، جعل لي عندهم قَدرًا. بات رمزًا للحظةٍ حاسمة. ظلّوا مُعجَبين بتَهَوُّري، باستخفافي بالخطر في سبيل أميرتي الغائبة. وزاد من وقع الحدث، ما أُثارَه من فضول ل.معرفة السِرِّ الذي حيَّر الجميع في قرار النقيب عندئذ. أنا فاجأتُه، وفي الوقت ذات.ه أتَ.حت ل.ه فرصة الظهور بمظهر ال.مُسْتَبِدِّ العادل، التي أتَته على غير انتظار. على أنّ ما كان ل.ه فعلُ السِحْر في رفاقي الشُبّان، هو مدى ال.مخاطرة التي قُمْت ب.ها، ال.مجازفة بكلّ شيء، فالبَرَكة. إئْتَمّوا ب.ي كمثل أعلى، ككبير ي.جمع شعورُهم نحوه بين الإعجاب والعِرْفان بالجميل.

إسْتَهْدفوا الإقدام على تحَدِّي سلطات ال.مُعْتقَل، إذ ل.م يعودوا يحْتَمِلون الإذلال. أرادوا الكَفَّ عن الانحناء. أعْجَبَني فيهم الاجْتراء وانْفلات اللسان. أتاني منهم صدًى ل.ما تردَّد بين جوانحي منذ أيّام القلعة. ي.جب ألّا ننحَني، ألّا نسْتَسْل.م كُلَّ الاستسلام. ما يُنْزَل بنا من بَطْشٍ منذ وصولنا ـ فيه الكثير من الزَيف والافْتِعال ـ لا يَفُتُّ في عَزْمي. ما الزَّجر والإهانة سوى إعادة إنتاج ل.مناهج التربويّة التقليديّة، التي تعْتَمِد كذلك الضربَ بالعصا، التي استُخْدِمَتْ مع الصغار منذ الأزل، للحفاظ على السلطة الأبوية ل.مُداوَمة تقاليد الطاعة الفَوْريَّة. هي محنةٌ كُتِبَت علينا، بإصرار سلطات ال.مُعْتقَل على قَهْرِنا. لكنه ليس مُعْتقَل إعدام؛ ولن نتعَرَّض لخطر ال.موت إنِ اتَّسَم مَسْلَكُنا بمزيدٍ من الكرامة. هذا ما اقْتَنَعْت به.

عقَدْنا بضعة اجت.ماعات، اقْتُصِرَت في البداية على الساخطين أصلًا. لكن سرعان ما اتَّسَعَت من جارٍ لجار لتشْمَل مجموع من في العنبر. دار النقاش حول ما ينبغي أن نفعل. طُرِحَ اقتراحُ الإضراب عن الطعام، ومنذ ال.مُسْتَهَلِّ أُثيرَت اعتراضات كثيرة. إنما ل.م يكن لدينا خيارٌ آخر. ل.م نملك إلا تحديدَ مدَى شدَّة الإضراب.

على أيِّ حال، ل.م يكن مَفَرٌّ من التَوَصُّل إلى تفاهمٍ ما في ال.موضوع، مع من في العنبر الآخر، وهم قدامَى أعضاء الحزب العُمّالي. ل.م يَغِبْ عنّا أنهم من الأصل متحَفِّظون على أيِّ أسلوبٍ لل.مواجهة. لكنْ ل.م يكن بُدٌّ من ضمِّهم إلينا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ما أمكن أن نتجاهل.هم؛ فإن اسْتَدَلَّت السلطات على اختلافٍ في الاتجاه بيننا وبينهم، لَحَفَّزَها على مزيدٍ من القسوة علينا، ولَخسرْنا من البداية.

جرَى الاتِّصال بالقدامَى في خِفْيَة من السلطات بواسطة أعضاء في حزبهم وُضِعوا في عنبرنا بسبب صغر سنّهم. وتواصلوا مع زعمائهم، إمّا بتبادل الإشارات من نوافذ العنبرَين في أوقاتٍ مُتَّفَق عليها أو عَبْر رسائل كُتِبَت على أوراق السجائر، بواسطة أقلام رصاص جلَبوها داخل ثَنْية سِتْرةٍ أو سروال، فأفْلتوا ب.ها من التفتيش البدني.

إذن فقد أُحيط القدامَى عل.مًا بتدبيرنا. وتَ.مَلَّكَهمُ الغضب. خَشُوا أن يُجَرُّوا إلى مبادراتنا الطائشة وأن تَحِيق بهم عواقب.ها بكرهٍ منهم، بل والأفدح أنها ستضعهم في مَوْقِفٍ أضْعف من مَوْقِفِنا؛ فهُم الذين سبقونا في الانتقال، ل.م يحْتَجّوا على ما تلَقَّوه من شتائم ولكمات. وإذ انحاز جميع من في عنبرنا لخيار الإضراب عن الطعام، ل.م يعد في وسْعهم الاكتفاء بنصحنا بالحذر. لكي يعودوا هم أصحابَ ال.مُبادَرة، اقترحوا من حيث ال.مبدأ حلًّا وسَطًا: أقَرّوا الإضراب عن الطعام، على أن يكون في البداية محدودًا، رمزيًّا. نحن قبلْنا البدء على هذا النحو، بشرط أن نحدِّد لفِعْلنا من أوّل لحظة هدفًا لا مساومة فيه: أن تتوقَّف الضربات والإهانات.

الوجبات الثلاث التي تُحْضَرُ لنا يوميًّا دفعةً واحدة قوام كُلٍّ منها رغيفان وقطعة من الجبْن وملء ملعقة من العسل الأسود وحساء دافئ، رفضنا تسلّمها. ل.م يتأخَّر ردُّ سلطات ال.مُعْتقَل. بهدف جَسِّ النبْض، استدعَى مدير السجن، الذي ل.م نكن نراه قطّ وهو ضابط برتبة عقيد ثلاثةً من القدامَى، كممّثلين للجميع. وصدرَت منه ت.هديدات مُرْعِبة؛ فقد راح يُذكِّرُهم بما ينتظر ال.مت.مرّدين من عقوبات لا مثيل لقَسْوت.ها. أصَرَّ على تراجُعنا عن قرارنا فورًا، مُبْدِيًا في هذه الحالة اسْتِعْدادَه لتناسِي عصياننا. بل ول.مَّح إلى إمكان نظره في الوقت ال.مناسب في مطلبِنا بأن نُعامَل بشيء من الكرامة. تجاوَبْنا معه. في الجولة الصباحيّة بعد يومين، كاد الزَجْر يتوقّف، وكأنّما بمحض الصدفة.

حقَّ لنا أن نفْرَح، لكنْ لا أن نحْتَفِل. لقد جَرَت التسوية على نحو ضِمنّي. ل.م يُبْرَم اتِّفاق، فل.م يتوافر ضمانٌ للاست.مرار. ل.م نَدْرِ إن كانت ت.هدئةً موقّتة أو هُدْنة طويلة ال.مدَى. على أيّ حال، دائمًا ستظلُّ التفاهمات هَشَّةً يَسْهُل الرجوع عنها. ل.م نكن نحن سادةَ ال.موقف.

زاد الإضراب الخاطف من تعكير ما بيننا وبين نُزلاء العنبر الآخر. نجاحنا نصَرَنا على القدامَى، أثْبَت تفَوُّقنا في سَبْر نيّات سلطات ال.مُعْتقَل، في تَبَيُّن علاقات القُوَى داخلَه. هذا ما أخذوه علينا، وأخذوه عليَّ أنا بالتحديد، فقد اشْتَبَهوا في

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تبييتي النِيَّة على تقويض سلطت.هم. وكان خطئي أنني أغْفَلْت.ها، وما كانوا لِيَغ.فِروا لي.

على أيٍّ فقد ظَفَرْنا بمُهْلةٍ فيها نتَنَفَّس، نُحِسُّ بشيءٍ من الحرية. قَلَّ عذاب أوقات الصباح، واتَّسَمَت ال.جَولات باسترخاءٍ ما. أخذ شكل الحياة في العنبر يختلف، وبدأنا نعرِف بعضنا بعضًا أفضل من ذي قبل.

ل.م نكن نتلَقَّى كُتُبًا ولا صُحُفًا، ولا مَلَكْنا أدوات للكتابة. إسْتَحْسَنّا شَغْل أمسياتنا بأنشطةٍ ثقافية. إرْتجَلْنا جلَساتٍ فيها روَى أيٌّ منّا ما قرأ من قصصٍ أو ما شاهَد من أفلام، بقدْر ما تُسْعِف الذاكرة. وقد يَعْقُب ذلك نقاش.

ضمَّ جَمْعُنا أستاذًا جامعيًّا حُجَّةً في التاريخ يَبْلغ من العُمْر ثلاثة أضعاف ما يَبْلغه معظمنا، طويلَ القامة، نحيفَ الجسم والوجه، لا يتكلّم إلا عن عِلْم. ل.م نعْرِف قطُّ ل.ماذا اعتُقِل ولا بأيّ حَيْثِيَّة وُضِع في عنبرنا. ل.م يَبِنْ منه الكثير قبلَ الإضراب. لكن ل.ما ل.ه من تَبَحُّر ال.مُعلِّم القدير، ولأنه حُلْو الحديث ولَوْذَعِي فقد صار محور أمسياتنا الثقافية. وفي كلّ أسبوع، ألقَى علينا محاضرات حرَص الجميع على حضورها عن فلسفة التاريخ عند ال.مؤرّخ أرنولد توينبي، ثمّ عن أسَر مِصر الفرعونية.

إذ حُرِمْنا أيًّا من سُبُل الاتصال، تلَهَّفْنا إلى كُلّ نبأ يأتي من أيّ أنباء عمّا في الخارج. من حين لآخر، أمَدَّنا بال.معلومات من جَدَّ علينا من مُعْتقَلين لاحقين. وكذلك أمكننا تجميع بعض الأنباء أثناء الوجبات.

أُوكِل إعداد الوجبات إلى مُتَعَهِّدٍ خاص، يبعث العاملين لديه يوميًّا إلى ال.مُعْتقَل، لتسليم كمّيّات الطعام إلى مندوبين عن كلّ عنبر؛ وتجري عمليّة التسليم والتسلّم، بمراقبةٍ صارمةٍ من السجّانين. أرْغِفة الخبز ال.مُستديرة ال.مُسَطَّحة الرخْوة، اعْتيد لَفُّها بأرْخص أنواع الورق، ومنه أحيانًا ورق الصُحُف، ليُمْسِي ألَذّ ما نخْتِم به الوجبة.

رحنا نفُضُّ الوَرَيقات بالعناية الواجبة ل.ما هو نفيسٌ نادر. صفحة الوفيات وحدها، هي ما ل.م نكْتَرِث له. إن.هَلْنا على كلّ ما عداها، من سياسةٍ داخليّة وخارجيّة، واجت.ماعات، وأحدث الأفلام. كُلُّ ذلك صار مَبْعَث مناقشاتٍ زاد من سخونت.ها شُحُّ ال.معلومات التي أثارتْها، وإمكان تضخيمها كيفما اتُّفق.

بعد قليلٍ سُمِح لنا بتَلَقِّي طُرود. ل.م يكن ذوونا على عِلْمٍ بال.موضع الذي نحن فيه، ولا بالأسلوب الذي نعامَل به، لكنّ.هم مُكِّنوا عن طريق وزارة الداخلية من إمدادنا بال.معلّبات أو اللبن ال.مُجَفَّف، أو بالشوكولاتة، وبأكياس شاي، وببعض ما نحتاج إليه من كساء: جوارب وملابس داخليّة.

مثَّلَت حفلة الشاي على مستوى العنبر بأجمعه لحظةً فريدةً عرفْنا فيها متعة

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الضيافة. بدءًا من إعداد الشاي حتى توزيع الأقداح وفي كُلٍّ منها جُرْعَة ضئيلة من ال‌مشروب الثمين ـ تلَذَّذْنا بفترة انتظار اكْتَسَبَت خلال‌ها أحاديثُنا مذاق الشاي.

لكن لكي نفوز بتلك اللحظات، وَجَب اجتياز عقبتين، واحدةً بعد الأخرَى. فمن ال‌مفارقة أنّ سلطات السجن سمحَت لنا بتلَقِّي أكياس الشاي، من دون أن تسْمَح بما يُسْتخدَم للتسخين. بالتالي كَتَب نُزلاء العنبر الآخر إلى ذوي‌هم، لكي لا يُكَلِّفوا أنفسهم عناء إرسال أكياس الشاي تلك. أمّا نحن، فاختلف تصَرُّفُنا؛ ففي جمعنا وُجِد طالبٌ بكلّيّة العلوم، في السنة الرابعة ـ تَفَتَّق ذهنه عن اختراع جهازٍ عجيب الشكل، يمكن به تسخين ال‌ماء، بالتقاط التيّار الكهربائيّ الذي يُضاءُ به العنبر. لكنّ الأمر ل‌م يَلْبَث أن انْكَشَف، وصَدَرَت تعليمات بقطْع التيار.

لا أذْكُر من منّا العبقري الذي أتَتْه فكرةُ الاستغناء عن الكهرباء، واستحداثِ نارٍ على نحو ما فعل أسلافنا البدائيّون من الخشب: خشب الأسِرَّة؛ فكُلٌّ منها مُدَّتْ حَشِيَّتُه آل‌هزيلة على ثلاثة ألواح تستند ـ عند الأطراف ـ إلى دعائم معدنِيّة مستطيلة. قرَّرْنا الاكتفاءَ بلَوْحَيْن لكُلِّ سرير، واستخدامَ الثالث وَقودًا.

وبعد تناول الشاي، تنعقدُ تجَمُّعاتنا وأتَلَهَّف إلى أحاديثنا أنور وأنا مع الأستاذ الجامعيّ. كُنّا طامعين في عل‌مه، مُدْركين أنّ‌ه في قرارة نفسه يَسْعَد بمشاركتنا إيّاه؛ على ألّا نناقشه الإحاطة بما ل‌م يعْكِف عليه، فعندئذ يُقتَصَر قَوْلُه على أنه على غير عِل‌مٍ بال‌موضوع. من ثم التَزَمْنا مجالات تخَصُّصِه.

على سبيل ال‌مثال، كانت دساتيرُ الأممِ موضعَ اهت‌مامه. درَس الكثير منها، واسْتَهْوَتْه ال‌مقارنة بينها من حيث مدى الحريّة التي يتيحها كُلٌّ منها للشعب. سألناه رأيَه في دستور عبد الناصر من هذه الزاوية. هَزَّ كتفيه، قائلًا:

ـ عبد الناصر لا يعرف ما هو ال‌هابياس كوربوس. دستوره لا يستحقّ أن يَمْثُل في هذه ال‌مجموعة.

لَ‌مّا كُنّا نحن كذلك لا نعرف ما هو ال‌هابياس كوربوس، فقد فصَّل لنا مبدأ حقوق الإنسان من الناحية التاريخية، بدْءًا من ال‌ماجنا كارتا. وفي ختام كلامه، ل‌م يُغْفِلِ الرجوع إلى سؤالنا الاست‌هلاليّ:

ـ ال‌هدف من الدستور هو انتزاع حقوق الشعب، من الحاكم ال‌مُسْتَبِدّ. ما اقْتَرَفَه عبد الناصر، هو العكس على طول الخط. لقد نَقَضَ واحدًا بعد الآخر مبادئ دستوريّة رسخَت لدينا منذ سبعينيّات القرن التاسع عشر. ولا يكْفيه أن يَسْلبَنا الحقوق الشخصية وال‌مدنيّة والسياسيّة التي حَصَّلْناها بأغلَى ثمن، بل يَطْمَع في إقرارنا بسَلْب‌ها.

كان ال‌مُعَلِّم هو من بَدَّد حيرة سَبَّبَها لي أوليس، قبل عشر سنوات، وأنا في

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مجلسي بشرفة منزلنا في دمياط.
إذ عرفْتُ بدراست.ه للُّغة اليونانيّة وآداب.ها، حرصْتُ على استغلال الفرصة.
ـ سأطْلب مشورتك لحَلِّ لُغْز غراميات أوليس.
قَطَّبَ جَبينَه:
ـ أيّ لُغْز؟
ـ ما راعني عند أوليس عَزْمُه على ال.مُضِيّ في مغامرات.ه إلى النهاية، وتأكيده على حرّيت.ه في مواجهة الآل.هة ومشيئت.هم. كيف يمكن للرجل نفسه، أن يظَلَّ أسير حُبٍّ وحيد؟ كيف أمْكن بعد كُلِّ تلك السنين من التَدَلُّه في غرام كُلِّ أولئك الفاتنات، أن يسْتَمِرَّ في إخلاصه لبنيلوبي؟
ضاق ال.معلّم لربّما في سؤالي من سذاجة. إبتسم كأنّما ليداري بعض الحَرَج. ثم دَقَّق في إجابت.ه، مُحاذِرًا إيلامي:
ـ يلوح لي أنّك ل.م تَقِف على حقيقة مَرْمَى أوليس وهو يناضل وي.جابه الآل.هة.
أرْهَفْت السَمع.
بدا حائرًا لحظةً في تحديد نقطة تناول ال.موضوع:
ـ بانت.هاء حرب طروادة، ل.م تَعُد وجْهةُ أوليس سوى وطنه. وإن كان لن يَلْقَه إلا بعد سنين عشر، فليس لأنه رغَب خلال.ها في ال.هو في بحر إي.جة من جزيرةٍ إلى أخرَى، بل لأنه مُطارَدٌ بفعل لعنةٍ صُبَّت عليه. تَذَكَّر أنه فَقَأ العين الوحيدة للسيكلوب بوليفيم، ابن إل.ه البحر بوزيدون؛ فهَبَّ أبوه لينْتَقِم ل.ه. ووسيلة الانتقام بالتحديد هي الحَيْلولة دون رجوع أوليس إلى إيثاكا: الحيلولة بينه وبين بنيلوبي. ما مغامرات أوليس إلا مِحَن. إنها شدائد مُرْعِبة يلقاها في طريق عودت.ه. إنما يَبْغِي هو بلوغ وطنه.
ـ لكنْ علام اسْتِماتَتُه؟ ل.مَ لا يحتفظ بحرّيت.ه؟ أليست هي ال.هدف من مسعاه؟
ـ لا يفوتَنَّك جَوْهر حكمة الإغريق. فعندهم ليست الحرية للبشر في فعْل ما يشاؤون، بل في إي.جاد كُلٍّ منهم مكانه الصحيح داخل نظام الكَوْن. إذ نُفِي أوليس بعيدًا عن إيثاكا بعيدًا عن بنيلوبي ل.م يَعُدْ يعْرِف من هو. تلك كانت اللعنة: جَعْلُ.ه ينسَى من هو.
توَقَّف لحظةً، وكأنه يسْتَطْلِع رأيي:
ـ أفَهِمْت؟ ل.م تكن بنيلوبي مُجَرَّد الزوجة ال.مُحِبَّة لأوليس ال.مُحِبّ ل.ها، بل

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مرفأ فيه يِجِدُ نفسه. هي وطنه الـجُوّاني، حقيقتـه القُصْوَى...

طويلًا ظَلَلْت على مَرْقَدي من دون أن يَـغْمِض لي جفْن، ومن دون أن أشت.هيَ النوم، تسْتَخِفُّني النشوة. طيلة تلك السنين، منذ أيّام دمياط، أمَلْت أن أسمع ما قال.ه، الذي كُنْت واثقًا به في قرارة نفسي طيلة ذلك الوقت.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[11]

عاودْنا اللقاء في حديقتنا الزراعيّة.

عَزَمَت نادية على إدراك فحْوَى التزامي السياسيّ.

ـ قد تشْغل أمورُ السياسة بعضَ زملائنا. إلا أنَّ هَمَّهم الحقيقيّ هو الدراسة، مستقبل كُلٍّ منهم كطبيب. لديك يختلف الوضع. السياسة أهَمُّ بكثير. بل قد تخاطر بمستقبلك في سبيل.ها.

ـ وما مستقبلي، إن ل.م يرتبط بمستقبل بلادنا؟

صمتَت لجزءٍ من الثانية، كأنّما لتستَوعب ما سمعَت، ثم استطرَدت:

ـ عن هذا السؤال، سي.جيب أيٌّ ممَّن حَوْلنا بأنّ عبد الناصر هو الذي يُقَرِّر مستقبل البلاد. أمّا مستقبل كُلِّ امرئ، فلن يُقَرِّره غيره.

ـ مستحيلٌ أن يظلّ الحال على ما هو عليه. جاوَز الظُلْم ال.مدَى. ل.م يعد للحُرِّيات وجود. يستحيل الاست.مرار.

ـ ال.مصريّون لا يعانون هذا الإحساس بالظل.م، ولا هذا الافتقار إلى ال.حرّية... يعيشون على هذا النحو منذ الأزل.

ـ بل منذ ثورة 1919 بدؤوا يعرفون ما هي الديمقراطيّة. عرفوا كيف ينتخبون ووَعوا أنّ.هم قادرون على تغيير الأحوال.

ـ لا أسْتَشْعر شيئًا من هذا. بحُكْم الأمر الواقع فإنّ عبد الناصر هو الحاكم لوطنٍ لا يُبْدِي أبناؤه تَذَمُّرًا.

ـ ستعود ال.مشاكل فتفْرِض وجودَها، وعندئذٍ فعلى نحوٍ أشَدّ حِدَّةً وأشَدّ.

ـ كيف يمكنك التأكّد؟ هل مُجْتَمَعُنا هو الذي يسْتَهْدف التغيير، أم أنت الذي تَسعى إلى تغييره؟

ـ لا فَرْق عندي.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

إبتسمَت. ل.م تُشْفِ إجابتي غليل.ها. مَثَّلَت دَور طالب الطبّ:

ـ متى ظهرَت هذه الأعراض؟

ـ منذ الطفولة. ثُم إن ما عانَيْتُه كان بالغ الانتشار في فترت.ها. شاركني فيه على الأقَلِّ نصفُ زملائي في الفصل. ل.م نكَدْ نتعلّم القراءة والكتابة في ال.مدرسة الابتدائيّة بدمياط، إلّا طالبنا بجلاء قُوّات الاحتلال. في ال.مدرسة الثانوية بالقاهرة، كان احتجاجُنا أقْوَى. غادرْنا الفصول، وتَجَمَّع طلبَةُ عديدٍ من ال.مدارس في ال.ميادين العامَّة. ولا أنْسَى خطيبًا مُفَوَّهًا أَلْهَب حماستنا. كان يتحدَّث بلسانِ الإخوان ال.مسل.مين. أولئك ل.م يكتفوا بالخروج في تظاهرات؛ فمنهم من تَطَوَّع لتنفيذ عمليّات فدائيّة في منطقة القنال، في معسكرات الإنكليز. أشْعَلوا حماسَتَنا.

ـ هل دخَلْتَ صفوف الإخوان ال.مسل.مين؟

ـ لبضعة أشْهُر. أدْرَكْت سريعًا أنني في غير موضعي. ل.م يكن غرضُهم إقْصاءَ الإنكليز فحسب، بل ابْتَغَوا م.حْوَ أيِّ ملامح للتفكير العل.ماني. أرادوا أن يكون الدين في كُلِّ شيء. ل.م يُسْمَح لنا بالتفكير ال.مُسْتَقِلّ. كفانا أن نُطيع اللّ.ه ونهْتَدي بسُنّة رسول.ه؛ ما يعنِي الطاعةَ العمياء، الطاعةَ للجماعة وزعيمِها: ال.مُرشِد. ضَرْب من الجنون. مفهومي أنا لطَرد ال.مُحتلِّ، هو أنه أولَى الخطوات نحو ال.مستقبل، لا الرجوع ألف عام إلى الوراء.

ـ وكيف ينبغي لل.مستقبل أن يكون؟

ـ كانت لديَّ بعض الأفكار بهذا الشأن، وإن ل.م تكن واضحة، عن الحرية والتقدّم، أفكار كشّفَتْها أوروبا لجيلنا. لكنني حِرْت بين بغضِي لأوروبا الاستعمارية وإعجابي بأوروبا الأنوار. وظلّت ال.معضلة تُضْنيني، حتى قاربت الحَلَّ بفضل كاتبنا الثوري في بداية القرن عبد اللّ.ه النديم. في عُرفِه أنه لا ضَيْر من الإعجاب بال.مستعمر ومقاومت.ه في الوقت نفسه، فالأصْوَب أن يُعَدَّ ال.مُحْتَلّ عَدُوًّا ومُعَلِّمًا في آنٍ واحد. إذ لن يمكننا أن نُفْلح في مقاومت.ه ما ل.م نُقَدِّر قُوَّته حَقَّ قدْرها.

ـ ونَفَضْت يديك من الإسلام؟

ـ كلّا. ما كنت إلا شديدَ الانجذاب إلى الإسلام، أي إلى الإسلام الذي عرَفْتُه في طفولتي. أحسن القصص، التي رواها لنا إمام ال.مسجد، عن روح العدالة عند الرسول، والأُخُوَّة التي سادت صلات الصحابة فيما بينهم. ل.م يكن همِّي نَفْضَ اليدين من الإسلام، بل عدم إقحام الدين في السياسة. تَطَلَّعْت إلى مُفكِّر يُرْشِد خُطاي، ووجدْتُه في شخص خالد محمّد خالد. هو نتاجٌ خالصٌ للفكر الأزهريّ، يَرقَى عن أيِّ شُبهة. منه نتَعَلَّم أنه لا يوجَد في القرآن أيٌّ ممّا يُصَرِّف أمور

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الدولة، لا يوجَد أيٌّ ممّا يتعارض مع ممارسة الديمقراطية. لكأنّ كُتُبَه كُتِبَت لي أنا.

راحَت نادية تكتشف عبْر حديثي كوكبًا ل.م يَبِن ل.ها من قبل، وتطَّلِع على مشاكل ل.م تَبْد ل.ها قطّ، وتَسْمع أسماء ل.م تعْرف ب.ها يومًا. إسْتَمعَت إليَّ بكلِّ جوارحها؛ فاستوجب منّي التركيز بأقْصَى ما أستطيع. ل.م أمْلِك ـ لإحْكام الرَدِّ على أسئلت.ها ـ إلا الرجوعَ إلى أعماقِ ما أمَضَّني التفكير فيه.

ـ وال.ماركسيّة؟

ـ تلك مرحلة لاحقة. في سعيي إلى تشخيص الأدواء التي أصابت مصر، أبَيْت اسْتطلاع الغَيْب. بحَثْت على الأرض عن مُرْتَكَز. إسْتَقْصَيْت التاريخ... تجارب الشعوب. فتَعَدَّدَت قراءاتي، ومعظمها لأعمال أدبيّة، روايات لكُتّابٍ أجانب. غير أنّني ل.م أبْلُغ ما أنْشُدُه من مزيدٍ من القراءة، لارتفاع أسعار كتب اللغات الأجنبيّة. وَجَدْت بُغْيتي في سوق حديقة الأزبكيّة، حيث تُباع بأزْهَد الأسعار روائع من مطبوعات استَنْفَدَها قارئوها. وال.مساومة ممكنة مع ال.مُعتادين علينا من باعة الكُتُب.

ـ فلْتُرافقْني يومًا!

ـ عليكِ ألّا تَبْدِي بهذه الأناقة، وإلّا فسيضاعِف الباعةُ الأسعار.

ـ أهناك لقيتَ ضالَّتك ال.منشودة؟

ـ لاقَيْت منير، وهو يساوم البائع على شراء كتاب في مُجَلَّدَين. لكنْ عبثًا؛ فالْتَفَت إليَّ وسألني إن كان الكتاب يَشُوقني. هو ل.مُفكِّرٍ إنكليزيّ اسمه موريس كورنفورث، وعنوان أحد ال.مُجَلَّدَين ال.مادية الجدليّة، والثاني ال.مادية التاريخيّة. إقترح عليَّ أن نشترك في شرائهما، بأن يُسَدِّد كُلٌّ منّا نصف الثمن ال.مطلوب.

ـ هذا ما اقترحه، رغم أنّ.ه لا يعرفك؟

ـ هذا بالتحديد ما أكْبَ.رْتُه فيه، أسلوبه في التعامُل معي. لَأمكنني أن أرفض اقتراحه، بَيْد أنني قبِلْتُه برغم خروجه على ال.مألوف. قال لي إنّ.ه قرأ الكتاب من قبل، وإنه يَعُدُّه مصدرًا ينبغي الرجوع إليه وتكرار قراءت.ه. ثم أصَرَّ على احتفاظي بال.مُجَلَّدَين، بما أنني ل.م أقْرأْهما بعد. قدّرْت أنني ـ في أسْوأ الأحوال ـ سأتَصَفَّحُهما وأرُدُّهما إليه. قرَأت.هما في نَفَسٍ واحد، مبْهورًا. بُهِرْت بوضوح الأسلوب وبالت.ماسُك في عرْض ال.موضوع. لقد اكْتَشَفْت ال.ماركسيّة.

ـ وحْيٌ آخر؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ ـ كلا. إنّ ها منظومة القراءة التي كنت في حاجةٍ إليها كي أسْتَقْرئ العالَم. أدْرَكْت أنّ ما يُسَيِّر الأحوال ليس ال مشيئة الإل هية، بل قانون ال مادِّيات، ال مصالح الاقتصادية في تشابُكها ـ واصطدامها. بعضها ببعضها الآخر، صراع الطبقات والثورات. عندئذٍ عرَفْت معنى التاريخ. لقد غدا لي دَورٌ أؤدّيه.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[12]

أكمَلت أيّام الحبس الانفراديّ. وفي مساء السابع منها، جاء الشاويش ليقتادني؛ وأنا ألْتَمس بعضَ السلوان من رؤية وجوهٍ صَديقة، واسْتِئْناسي برفقة أنور، لكن حين فتَح الشاويش باب العنبر، كدْتُ أتراجع رغمًا عنِّي. أحْسَسْتُ تغييرًا في الجَوِّ قبل أن أتَبَيَّن أيَّ تفاصيل. ل.م يكن العنبر نفْسه.

ل.م يَعُد كثير من أصدقائي الطَلَبَة في مواقعهم. رأيْت وجوهًا لأناسٍ أكْبَر سِنًّا، ونظراتٍ قرَأْت فيها ـ من أوَّل لحظة ـ النفور.

شغَل شخْصٌ آخر سريري الذي في نهاية العنبر. وعلى سريرٍ آخر، وُضِعَت حاجيّاتي: حقيبتي التي فيها الرسائل وأشيائي القليلة. أنور شغَل السرير ال.مجاور.

حين عانقني بحرارة ـ من دون أن ينْبِس ببنْت شفة ـ إستَنْتَجْتُ مدى ما عانَى من عُزْلةٍ وبُتنا سنعانيها نحن الاثنين. بدأت جَوْلة ال.مساء. ومن دون أن نخرج مع الآخرين، ظلِلْنا في العنبر الخالي جالسَين كُلٌّ منّا على سريره، نَنْشُد استعادة الأُلْفة. وأنْبأني بما جرَى.

أثناء غَيْبَتي، غادر معظم الرفاق الشبّان ال.مُعْتقَل ـ ومعهم ال.مُعَلِّم ال.مُسِنّ ـ إلى جهةٍ مجهولةٍ كالعادة. دارَت شائعات بأنهم أُعيدوا إلى القلعة، ت.مهيدًا للإفراج عنهم. إسْتَعْرَضْتُ في ذاكرتي وجوهَهم ـ في تعبيرها عن مُزاحٍ بريء أو عن غضبٍ مُتَرَفِّع ـ ونظراتِهم الشاردة أحيانًا، وهم معنا في مُعْتقَل ما وجَب قطّ أن يودَعوا فيه. وحَبَوْت نفسي ـ للحظةٍ ـ بهجةً باحت.مأل مقارَبَة محنت.هم نهايت.ها.

من حلُّوا محلَّهم، جاؤوا من القلعة، حيث تركناهم من قبل بحوالى ستّة أشهُر. ومعظمهم من الكوادر.

منهم حوَى العنبر نحو ثلاثين من أعضاء الحزب العُمّالي، وبذا حازوا فيه الغَلَبَة، فتَصَرَّفوا ـ منذ اليوم الأوَّل ـ كأنّ.هم في أرضٍ غزوها. قرَّروا أن يَشغَلوا من ال.مكان نصفَه كاملًا، بدءًا من عُمقِه، ما أتاح ل.هم التَكَتُّل في عُصبةٍ مُسْتَقِلَّة.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وفي اجت.ماعاتِ.هم يتبادلون ـ بصوتٍ خفيض ـ حديثًا ينبغي ألّا يسمع منه نُزلاءُ العنبر كل.مةً.

في النصف الثاني ـ بمواجهة ال.مدخل ـ تَجَمَّع خمسة عشر من أعضاء الحزب ال.مُوَحَّد، جاؤوا مع خصومهم في الرَكب نفسه. وبين الاثنين وُجِد من بَقِي من قدامَى النُزلاء، أيْ بعض الطلبة وأنور وأنا.

في وجود ثلاث جماعات غريبةٍ عن بعضها بعضًا ـ تتشارَك شَغل حَيِّزٍ بهذا الضيق ـ توَقَّعت ألّا يعود العنبر يُطاق؛ وقد راعَى زعماء الكُتلتَيْن الحزبِيَّتَين أن يُعلنوا ـ بل وبأعلى صوت ـ فَرْض كُلِّ كُتْلَةٍ ما يُشبه النطاق الصِحّي حول أفرادها. إذ ينبغي ـ بأشَدِّ الحِرص ـ حِفظهم من عدوى أيديولوجيّة يت.هَدَّدُهم ب.ها الخصم.

على أنّ.هم أجْمعوا على أمرٍ واحد، هو ما نبعثه فيهم من رِيبَة، أنور وأنا. اتَّهَمونا باصطناع آراء الشيوعيّين وفي الوقت نفسه رفض الانت.ماء الحزبيّ. إذن فقد خُنَّا القضيّة. فضلًا عمّا يُكِنُّونه لي من بغضاء مَزِيدة، ل.مثابرة الشُبّان على ث.قت.هم ب.ي.

للتَوِّ وُضِعْنا في ما يُشْبِه الحَجر الصِحّي. صار الذهاب إلى دِلاء ال.ماء، في عُمق العنبر ـ أي مرورًا بأرضٍ ي.حتَلُّها الحزب العُمّالي ـ مِ.حنةً لا قِبَلَ لأعصابنا ب.ها. ول.م يَعُدْ في إمكاني التَرَيُّض ذهابًا وإيابًا بالخَطوة السريعة، في ال.مَمرّ الفاصل بين صَفَّي الأسِرَّة. ل.م يَعُد أمامي سوى انتظار الجولات في مواعيدها، كي أتَخَفَّف من تَوَتُّرٍ يَضيق به صدري.

بحلول شهر نوفمبر (تشرين الثاني) أمَضَّني البرد. كانت نادية قد أرسلَت إليّ بلوفرَين لأرتدي أحدهما فوق الآخر حتّى أصْمُد خلال الشتاء. لكنّني أعْطَيْتُ واحدًا لتل.ميذٍ من بين رفاقي الأوَل، وأخَذَه معه حين رُحِّلوا؛ ول.م يكن ال.بلوفر الذي بَقِي لي، كافيًا لتدفئتي.

لكأنما أُلْقِيَ بنا في ذلك ال.مُعْتقَل، لكي نكتشف مدى قسوة البرد في قلب الصحراء، وفي الليل على الأخصّ. ما أسْعَدنا ـ أنور وأنا ـ بواحتنا!

قال لي:

ـ مرَّت علينا أيّام قاسية، تلك التي قضاها كُلّ منّا في عُزْلَة. كُنْت أنت معزولًا، وأنا أشدُّ عزلةً وسط هؤلاء وأشباهِهم.

ـ ف.ي حقيقة الأمر، ما ال.مُشْتَرَك بيننا وبينهم؟

ـ دَعْني أفَكِّر... ماركس. أليس كذلك؟

ـ أي نعم. مثل.ما في تاريخ الإسلام: تلك الفِرَق ال.مُتَعَدِّدة التي احْتَرَبَت فيما

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بينها بلا انقطاع، وكُلٌّ منها يسْتَنِد إلى الكتاب نفسه لا إلى غيره. بَيْد أنّ.ه يوجد فارق بين شيوعِيِّينا اليوم وعُل.مائنا بالأمس، هو أنّ العل.ماء حفظوا القرآن عن ظَهْر قَلْب، أمّا هؤلاء الشيوعيّون، فل.م يقرَؤوا حرفًا واحدًا من رأس ال.مال.

ـ تَصَوَّر ـ للحظة واحدة ـ تَوَلِّي أحدِهم الحُكْمَ. ماذا سيكون مصيرُنا، أنت وأنا؟

ـ لن يتأخَّر إعدامُنا بت.همة الخيانة العُظْمَى. أتساءل عمّا يأْخُذونه على عبد الناصر، احتكار السلطة؟ سيفعلون فعْلَه لو كانوا مكانه.

ـ كلا. أسْوَأ منه.

أطْلَقْنا ضحكةً ل.م تكن صافية.

راح أنور ينكأ القُرحة:

ـ إن صَدَق حَدْسي، فخارجَ هذا ال.مكان أعداؤنا الألِدَّاء، وداخل.ه جلّادونا في ال.مُسْتَقْبَل.

ـ على قَدْر ما في هذا من عَتَه، فهو صحيح.

عند قَول.ي هذا، عادَت إليَّ بَغْتةً ذكرَى زنزانة الحبس الانفراديّ.

ـ أتَعرِف أنّني ل.م أكُن وحدي في تلك الزنزانة، طيلة ليلةٍ بأكْمَلِها؟

ـ أتَ.مزح؟

رَوَيْت ل.ه ما كان من ولوج محمد مَحْبَسي في الليلة الأولَى، ثم عُزْلتي ثانيةً في صباح اليوم التالي. وبين الاثنين ما سَرَدَه عليَّ محمّد عن رحلت.ه السوريّة العراقيّة العجيبة. حرصتُ على الاختصار ما اسْتَطَعْت، مُتَجنِّ.بًا إصدارَ أحكامٍ بشأن أيٍّ من تفاصيل تلك الحكاية. إنّما صَعُب عليَّ ألّا أُشْرِك أنور في قلقي من جَرّائها، ففيها الكثيرُ م.مّا لا ينسجم بعضه مع بعض، ويتعَسَّر تفْسي.رُه. صار محمد مُشْتبَهًا فيه، بأيِّ ت.هْمة؟ ما عُدْت أدْري.

بَغْتةً ساوَرني الشكُّ. هل عِشْت ذلك الحدَث وأنا في كامل قواي العقليّة؟ في تلك الليلة والزنزانة مظل.مة باردة، أل.م أكن ضحيّة ال.هلْوَسَة وأنا أسْمَع ما أسْمَعه؟

منذ اعتقالي وقعْت في تشابُك أحْداثٍ طرأَت فبَلْبَلَت كلّ ما اعْتَدْتُه، وشَوَّشَت كلّ مُرتكزاتي الباطنة. فإذا بذهني أخيرًا يحيد عن الطريق شيئًا فشيئًا. بل والأسْوَأ تَ.خَيُّلي أحيانًا أنّ أحداثًا غير معقولة ستقع لي، وأنني سأتَ.قَبَّل.ها كأنّ.ها أمرٌ واقع.

عندئذٍ وَخَزَني سؤالٌ أدْمَى قلبي كمثل.ما نصل السِكِّين: «ونادية، ما ل.ها بكلّ هذا؟ هي التي ل.ها أن تتطلَّع إلى خَيْر ما في الحياة وتحْظَى به، ل.ماذا تُجَّر

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

معي إلى مصيرٍ بهذا البؤس؟» حتّئذٍ ل.م تكن سعادتي وسعادت.ها إلا واحدًا. وفجأةً ـ في هذا الكابوس الذي انتابني في يقظتي ـ ل.م تَعُد صُورتُ.ها وصُورتي تت.رافَقان.

[13]

في جلْسَتنا على الحشائش، تُظلّلُنا شجرَة بلّوطٍ صارت ـ مع الأيّام ـ شجرَتَنا، رُحْنا نسْتَعيد ذكريات يوْمٍ مشهود، هو السادس والعشرون من يوليو (ت.موز) سنة 1956، حين أُعلِن عبد الناصر تأميم قناة السويس. هو يوْمٌ عِشْناه بعيدَين أحدنا عن الآخر، وإن جمعَنا بكُلِّ مواطنينا النَبْض نفسه. بحَثنا عن لحظاتٍ بعينها احْتُمِل فيها أن يأتي كُلٌّ منّا بالفِعال نفسِها، ويسْتَشْعر الأحاسيس نفسَها.

فجأةً، قالت نادية:

ـ يا ل.ها من خسارة!

ـ خسارة؟

ـ يوْمَها تلاشَت الحواجز بين الناس. بات الكُلُّ مُنْتَشِيًا وواثقًا وسعيدًا. هي خسارةٌ أنّ يوْمًا كذاك لا يتكرَّر، أنّ مجيء يوْمٍ آخر مِثْل.ه مستحيل.

أعْجَبَني ما في قَوْل.ها من مُباغَتةٍ أل.همتني ـ على الفور ـ اسْتعراضًا للحدَث من مُرْتَقَبٍ آخر:

ـ لن يتكرَّر، بالطبع. إنه يوْمٌ أعاض عن قرنٍ من العبوديّة. لحظةَ إلقاء عبد الناصر حديثه، شَعر كُلُّ مصريّ بأنّ وطَنَه يُولَد من جديد. وأثناء الحديث نفسه، جَرَى ما هو رائع: ل.م يعد ال.مصريّون ي.خْجَلون من أنفسهم. عرفوا أنّ.هم قادرون ـ بدءًا من تلك اللحظة ـ على مواجهة الأجنبيّ مرفوعي الرأس. ساعتئذٍ خرجوا من ديارهم، لَبّوا داعيًا قهّارًا إلى الخروج من بين ال.جُدران والتلاقي في الساحات العامّة، كي يحتفلوا معًا بال.ميلاد. لذا قضوا لَيْلَهم في الشوارع، تبادلَ الحديثَ من لا يعرفون بعضهم وتعانق الناس بعفويّة. على ذكر هذا، كم عدد من عانقوكِ لَيْلَت.ها؟

سِرُّ سِحْر نادية ابْتسامتُها، وب.ها تستطيعُ تغيير مسار الحديث كيفما شاءت.

ـ ل.مّا بدأ الإنكليز انتقامَهم وغَزَوا منطقة القنال، ذهَبْتَ إليها، مُتَطَوِّعًا للانخراط في ال.مقاومة. ل.م تزْوِ لي تفاصيل ذاك.

ـ يضايقني التَحَدُّث عنه.

ـ لكنّني أريد أن أعرف.

ل.م يكن حَدَثًا قريبًا إلى قلبي؛ ففيه تَرَكّز كُلُّ إحْباطٍ مُنِيت به، وترك لي ذكرَى مَريرة، لكنّ نادية طلبَت مني، مُتَطَلِّعةً إلى مزيدٍ من الكشْف.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ أنت عِشْت ذلك اليوْم مثلي، مثل الجميع. بعد التأميم ببضعة أسابيع، قَرَّرَت إنكلترا وفرنسا وإسرائيل مُعاقبتَنا. إسرائيل غَزَت سيناء، والإنكليز احتَلّوا مدينة بورسعيد. جُرِحَت كرامةُ كُلِّ مصريّ، وأحَسَّ أنّه هو نفسه أُهين. تحَوَّل الفخْرُ الذي ساد من قبل، إلى عَزْمٍ جبّارٍ على التصَدّي يدًا واحدة، على اعتناق الإحساس بمسؤوليّة لم نَحْمِلْها من قبل. لم نتقَبَّلْ شهودَنا الأحداث كمُجَرَّد متَفَرِّجين. طلبْنا السلاح. لم نتلَقَّ شيئًا. عبد الناصر يعتمد في المقاومة على جَيْشِه وجُهود الدبلوماسيّة، لا على الشعب.

ـ وما الذي يستطيعه الشعب، في حربٍ كهذه؟

ـ الشعب يملك الشجاعةَ والحماسة وروحَ التضْحية إلى أبْعد مدَى.

ـ لا أفهم كيف.

ـ ينبغي توزيعُ الأسلحة على الناس، وتدريبُهم، والوُثُوقُ بهم.

ـ في مواجهة جيوشٍ نظاميّة عصريّة مُدَرَّبةٍ على القتال؟

ـ فلْتَعْلَمي أن الطُلّاب لم يترَدَّدوا لحظةً واحدة. كَوَنّا جماعاتٍ من المُتَطَوِّعين؛ وطالَبْنا بتدْريبٍ عسكريٍّ فوريٍّ، وبضَمِّنا إلى قُوّات الدفاع المدني. كان مشروعُنا التسَلُّلَ إلى بورسعيد المُحْتَلَّة، كي نرفعَ معنويات الأهالي المُرَوَّعِين ونُنَظِّم الفدائيّين ونقَوِّضَ خطوط الأعداء. توَجَّهْنا إلى الضبّاط القائمين على حرم الجامعة، لكنهم ارتأوا أنّ خَير ما يمكن أن نفعله، هو أن نرجع إلى بيوتنا ونتابع عبر الراديو خُطَب عبد الناصر.

ـ مثلما فَعَل كُلُّ المصريين.

ـ رفضْنا أن نتَفَرَّق. إلْتَمَسْنا مقابلة مسؤولين أرْفَعَ قَدْرًا. أتدْرين كيف تصَرَّف أولئك؟ هدَّدونا برَمْينا بالرصاص، إن لم نغْرُب عنهم. أتتَصَوَّرين هذا؟ لم يكن هَمُّهُم مقاومةَ الإنكليز، بقدْرِ ما كان منْعِ المصريّين من توَلّي أيِّ مسؤولية. أُبْتُ إلى بيتي مَكْروبًا، ذليلًا، حانقًا. لم أطِقِ الرُضُوخ.

ـ عندئذ، فإن صدَق حدْسي، مضَيْتَ للقاء منير.

ـ مضَيْتُ للقاء منير. وَجَّهْت إليه سؤالًا: هل نحن مُلْزَمون ـ أخلاقيًّا وسياسيًّا ـ المرور بالدوائر العسكريّة الرسميّة، كي نبْلُغَ مواقع المُواجهة؟ إن الذين شَنّوا المقاومة في فرنسا ضد الاحتلال النازي، لم يسْتَأذِنوا أحدًا. أجابني بأن الوضع مُخْتَلِفٌ تمامًا. في فرنسا وقتها، كانت السلطات الرسميّة خاضعة للنازيّين. إستحال على رجال المقاومة التفاهُمُ معها. أمّا هنا، فقائد النضال ضدّ المُحْتَلّ هو عبد الناصر، بأسلوبه الذي يَحِقُّ لنا انتقاده؛ لكنْ لا يمكِننا مخالفةُ طريقه، بالسعْي إلى تأسيس خلايا مُسْتَقِلَّة للمقاومة. على الفور ستُدان مُبادَرةٌ كتلك، باعتبارها خيانة. ثم إنّ الشعب سيُسيء فهمَها.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ لا أكْتُمُك تفَهُّمي ل.هذا الرأي.

ـ أنا ل.م أقْتنع ت.امامًا بكلامه. ل.م يَغِبْ عنّي أنّ رأْي غالبية ال.مصريين هو أنّ من الطبيعي أن يُقَرِّر عبد الناصر كلّ شيء. هو الزعيم والأب والقائد، لكنْ حين نُدْرِك أن الزعيم على خطأ، أفليس علينا الضَغْط عليه؟ أفليس علينا ضَرْب ال.مثل على مُناطَحَتِه، وإن يكن من نصيبنا في البداية سوء الفهم؟

ـ وماذا قال منير؟

ـ إقْترَح عليَّ أن أبْدأ بالتقَصّي من حَوْلي، كي أعرف كم من الشباب مُتَأهِّبون لأن يتابعوني كفدائيّين. إنّما ل.م أحْتَجْ إلى ذلك. فتصادُمُنا بمسؤولي الجامعة ل.م يكن في نهاية الأمر بلا جدْوَى؛ فقد أنْبَت أفْكارًا في رؤوس مسؤولي أجهزة الاستخبارات الحربيّة، وأولئك اسْتَدْعونا. ما الذي جعَلهم يُبَدِّلون من مسْلَكِهم؟ ربّما مخافةَ إثارةِ أزمةٍ حادَّة داخل الجامعة، والحرب على أشُدِّها. تظاهروا بانب.هارهم فجأةً بحماستنا. لكن ذلك كان لِفَرْز ال.مُتَطَوِّعين وعَزْل.هِم عن الكتلة الطالبيّة. أخَذونا إلى مُعَسْكَرٍ مهجورٍ بمنطقة القنال، حيث دَرَّبونا على اسْتِعْمال الأسلحة الخفيفة. نَوْعٌ من الخدمة العسكريّة وأعمال الكشّافة معًا. وبنهاية أسبوعَين، أعادونا إلى القاهرة، مُلَمِّحين لنا باحت.مال اسْتِدْعائنا ثانيةً فيما بعد. أفْرَغونا من طاقتنا، وأطْفؤوا حماستنا، وأطْلقونا وقد أحْبَطوا أغْلَبَنا.

ـ بصراحةٍ فإنّني أتساءل كيف يمكنكَ أن تَظَلَّ مُؤْمِنًا بقُدْرتِك على تغيير الأحوال، في أثَر تجربة كهذه. ال.مصريون يتوَقَّعون من عبد الناصر أن يَحِلَّ جميع مشاكلهم، وتُريد أنت أن يَحْملوا السلاح، أن يُنازعوه على السلطة.

ل.م أفاجَأ بسؤال.ها، بل بالإجابة التي انْطَلَقَت منّي:

ـ داخل كُلِّ مصريٍّ، يوجَد ما لا يُقَدَّر بثَمَن، وهو كرامت.ه. ما هي الكرامة؟ ليس لدَيَّ تعريفٌ ل.ها. لا أعرف إن كان ماركس قد تكَلَّم عنها، لكنّي أعرف أنّ.ها إن اسْتُهين ب.ها طويلًا أو أُغْفِلَت أو أُحِطَّ منها، فسي.جيء يوْمٌ فيه تُحَطَّم السدود، وتَثُور فلا تُبْقِي ولا تَذَرْ.

طويلًا ظلَّت نظْرة العينين السوداوين الواسعتين مُثَبَّتةً عليّ. والوجه أضاءتْه ابْتِسامةٌ دالَّةٌ على التَأمُّل، جعلَتْني عذوبتُها ورِقَّةٌ انبَثَقَت منها، أتَرَنَّح.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[14]

كئيبةً كانت ليلتي الأولى في العنبر، بعد انت.هاء أيّام الحبس الانفراديّ. إستَيْقَظْتُ مبكّرًا وظلَلْت مُتَمَدِّدًا على فراشي، في انتظار فَتْح الباب لبدْء الجَولة الصباحية. هو التَزاحُم كالعادة نحو الفِناء. صبرتُ حتّى خرج أغْلَبُهم؛ وأنور انْتَظَرني كي نَخْرُج معًا.

ما إن صرنا في الخارج، في ساحة الحرِّيَّة النسبيّة تلك، إلّا اسْتَشَعَرنا شيئًا من الاسْتِمْتاع بسماءٍ شاسعة، تحت.ها نَسْتَنْشِق بملْء رئاتنا نسيمًا عليلًا، جافًّا ومُقَوِّيًا، يصِلُنا بالجانب الآخر من الحياة، ويُتيح لنا أفُقًا يُوهِي الأسلاك الشائكة.

داهمَني الضوء، ولكي أعتادَه اضطُرِرْتُ إلى التوقّف مُغمضَ العينين؛ وأنور يتابِعُني، مثل.ما يُتابِع رجلٌ ناقةٌ في خَطوات.ه الأولى. وجَدْنا أنْفُسَنا نتوجّه إلى الأسلاك الشائكة.

جَهَرْتُ بما خطَر لي فجأةً:

ـ ألا تُذَكِّرُك الأسلاك الشائكة بشيءٍ ما؟ هي مثل كورنيش النيل في القاهرة: الحد الأقصَى لتَنَزُّهِنا.

بدا لي أن ال.مارِّين بنا من الشباب يتحرَّجون، كأنّ.هم يتردَّدون في الحديث إلينا.

قال أنور باقتضاب:

ـ يوَدُّون التَحَدُّث معنا، لكنّ شيئًا ما بات يمنعهم. قال ل.هم القدامَى إنّ عليهم أن يُحاذِروا منّا.

ساعتَها بلَغْنا برج الحراسة حيث بدأ كُلُّ ما كان قبل ث.مانية أيّام، وعبد الل.ه قائمٌ حيث يكون دائمًا. بلا مُقَدِّمات، خطَر لي أن أمضيَ للقائه. أيّام الزنزانة، تَهَيّأْتُ في خيالي ل.هذا ال.موقف، إنما بتَصَوُّرات متناقِضة. أحيانًا استَبَدّت بي رغبةٌ جامحةٌ في مواجهت.ه بحقيقة رأيي فيه، كان مسْلَكُه شائنًا. وأحيانًا

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أخرَى ـ إذ أتَذَكَّر ما قرَأْتُه في عينيه من يأسٍ مُقْتَرِنٍ بالخِزْيِ ـ ارتأيْت أنّ مواجهتي إيّاه بخِسَّت.ه، لَسَتُمنِيه بهزيمةٍ مُذِلّة؛ وجَب عليَّ أن أؤكِّد ل.ه أنّني لا أدينه.

أدْرَك أنور أن مرأى عبد الل.ه يبعث فيّ بعضَ اضطراب. وإذ ل.م يستقرئ ما في ذهني بالتحديد، أراد توّها أن يطْمَئِنَّ إلى إحْجامي عن أيِّ تَ.هَوُّر.

ـ دَغْك. لا تُعِرْه انتباهًا.

جَعَلَني جَزَعُه أبتسم.

ـ أعِدُك.

لكنّني بعد قليل، أخلَلْت بوعدي.

حين فارَقني أنور ليذْهَب إلى ال.مراحيض، رحت جيئةً وذهابًا بحذاء الأسلاك الشائكة أذرع بعض الأمتار الفاصلة بين بُرجَي الحراسة، وأنا أنظر إلى الخارج، أتَطَلَّعُ عَبَثًا إلى رؤية الفلاح ال.مُسِنِّ يُهَرْوِلُ بحماره. أقْنَعْت نفسي بأنه ل.م يعاوِدِ ال.مرورَ بال.مكان في غيبتي ، وأنّ من اللائق أن يظهر فيه ثانيةً، إكرامًا لعوْدتي.

لكنّ عبد الل.ه هو الذي تراءَى لناظريّ، ليفاجِئَني مرّةً أخرَى.

كان هابطًا لتَوِّه من برج الحراسة، للتَنَشُّط في الفِناء، مواصِلًا مُراقَبَتَه للجولة. فهمت على الفور أنّني مَقْصِده. تَرَدَّد في الدُنُوِّ مني، رغبةً منه في الاطمئنانِ أوَّلًا إلى أنه لا يُخاطر بتاتًا. أوتِيت من الوقت ما أتاح لي إت.مام الرَواح جيئةً وذهابًا مرَّتَين، قبل أن يبدأ مُناورتَه. خطا هو خطوتَين أو ثلاث خطوات ـ مُولِيًا لي ظَهْرَه ـ ثم استدار وجاء في اتِّجاهي، كأنّما ليَمُرّ بي مصادفةً. إذ أصْبَح بحذائي، نطَق من دون أن يتَوَقَّف ببضع كل.مات ل.م أستطِع سماعها، وإن أدْرَكْت أنّ.ها ليست لإبْداء الاعتذار أو النَدَم، بل للإبلاغ بنبأ.

واصَلْنا ال.مناورة، مُبْتعدَين أحدنا عن الآخر، لكي نعود أدْراجنا ونتحاذَى لبضع ثوان.

قُلت:

ـ ل.م أسْمَع.

ـ ستجري ترحيلة.

لَزمني بعضُ الوقت لكي أعِيَ معنى الكل.مات، ثم أسْتَوْعِبَ النبأ: نقْل... وعبد الل.ه تَحَصَّن بمنت.هَى الحَذَر، بكُلِّ قُدْرت.ه على الاسْتِشْعار، وبعينَين على كل ما حوْلنا، وأذُنَين مُرْهَفَتَين. ما أمكن أن يُهْمِل فيُلْدَغ مرَّةً أخرَى. بقدْر تأكُّدي من مدى ال.مُخاطرة التي يقوم ب.ها، كان شكري ل.مبادرت.ه.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

واصَلْت ال.مشي بالخطْوة نفسها، مُبيّنًا بذا عزْمي على معاودة تقاطُعي به. وارتضَى هو ال.مواصلة من ناحيت.ه. على بُعْد مترٍ واحدٍ منه، سألْت.ه:

ـ متى؟

ـ الليلة.

راح قلبي يدُقُّ بشدَّة. مغادرة هذا ال.مكان، الليلة. يا لَلنبأ العظيم. إن هي إلّا ساعات وينهار هذا الكيان العَفِن. هو في حدّ ذات.ه تحَرُّر، بل قد يكون تحَرُّرًا تامًّا. العودة إلى الحياة... نهاية الكابوس، لكنْ سرعان ما قطعَت هذياني طائفةٌ من التساؤلات. أوَّلًا لا شيء حولنا يُتيح التكهُّن بحدثٍ كهذا. ما من تَقْلْقُل. ما من دلالةٍ على أيٍّ مما يخالِف ال.مألوف. بديهيٌّ أنني ل.م أكن مضطَرًّا إلى الوُثُوق بكل.مة عبد الل.ه. وحتى إن صدَق ما أبْلَغَني إيّاه، فما من إجابةٍ عن السؤال الأساسيّ: من سيرحّل، وإلى أين؟

ل.م يكن ممكنًا تبادل أكثر من كل.متين أو ثلاث كل.مات في أيٍّ من مرّات تقاطُعنا. وكُلّ منها مَثَّل مخاطرةً بالغة. شرَع هو في الابتعاد، ول.م يعد أمامي سوى انتظار الليل؛ فل.م يكن إلا في الليل تنفيذ عمليات الترحيل. وفي الأثناء ـ وأنا مُتَذَبْذِبٌ بين رجاء مغادرة ذلك العنبر الجهنّمي والخوف من الوقوع في ما يفوقه رهبةً وإيحاشًا ـ تحَتَّم أن أسْتَبْعِد خاطِر الظَفَر بالحرية، أسْتَبْعِده ت.مامًا. أن أعود ل.ملاقاة نادية... السعادة الجنونيّة بضمّها بين ذراعَيّ: هذا أملٌ لن أسمح لنفسي بإحيائه.

إسْتَشْعَرْت عودة أنور إلى جانبي، قبل أن أسْمع صوت.ه:

ـ لا سبيل إلى إصلاحك.

لاحَظ هو عن بُعْدٍ ـ عائدًا من ال.مراحيض ـ عمليات الاقتراب والابتعاد الغريبة التي رُحْنا نقوم ب.ها، وألْزَم نفْسه البقاء بعيدًا، رغم القلق الذي ساوَرَه؛ ليراقِب ـ من ناحيت.ه ـ ما حَوْل مبنَى الإدارة. وبمُضِيِّ عبد الل.ه، توَقَّع أن أفَسِّر ل.ه سبب مجازفتي. بذا أنا مَدينٌ ل.ه، ويُ.حَرِّقُني الشَوْق إلى مشارَكَتِه النبأ العظيم، لكنّني تردَّدْتُ في إبلاغه إيّاه من دون احتياط. تبديل مواضع الاعتقال، هو أهمُّ الأحداث وأخطرها، وأشدُّها بعْثًا للاضطراب في نفوس نُزلاء ال.مُعْتقَل. يُغَيَّ.ر كُلَّ شيء، فجأة. وإعلانه قنبلة عنقوديّة تُفَجِّر عاداتنا اليوميّة وتُطِيحنا صوْب غدٍ مجهول ل.م نتأهَّب ل.ه. وإلى أن يَحِلّ، يغْمُرُنا إحساسٌ بأنّنا لا نملك من مصيرنا شيئًا. وجَب عليَّ أن أقِي أنور شرَّ بلاغٍ مُباغِت. قرَّرْت التَمَهُّل حتّى عودتنا إلى العنبر، مُغتَنِمًا من الوقت ما يتيح الاستقرار على أصْوَب ما يمكن قَوْلُه.

قال أنور:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ تبْدُو لي متَوَتِّرًا.
ـ أجل.
إلتفتُّ نحْوَه، ليَعْلـم أنّني لا أتَجَنَّب مواجَهتَه، وأنّـه إن وُجِد ما لا أبْغِي البَوْح به، فلغايةٍ في نفسي.
ـ فيما بعد.
زاد تعَجُّلـه. لكنّـه أمسك عن الإلحاح. لـم نتبادل أيَّ حديثٍ حتّى نهاية الجولة. ما إن أُبنا إلّا تـمَدَّد كُلٌّ منّا على فراشه، صامتًا.
فيما حولنا، راح القدامَى يسيرون جيئةً وذهابًا، جادِّين كأنّ على عاتِقِهم مهمَّات حاسمة ينبغي أن يُنجِزوها. أيمْكن ـ في أقرب وقت ـ أن أغادر هذا الـمكان، وكذلك أن أفارِق هؤلاء؟ مهما كان التغيير، فهو في حدِّ ذاتـه مُغرٍ. فجأة حسَمت الأمر: لن أُبْقِي السِرّ أكثر ممّا فعَلْت. لَزَم أن أحيط أنور علـمًا، على الأقلّ أن أُشْرِكَه، وإن لبضْع ساعات، في ذلك الـمزيـج الـمثير من الخوف والرجاء، الذي يخامرني منذ بَوْح عبد اللـه لي.
أدْنَيْتُ وجهي من وجهه، وعقَدْنا محادثةً هامسة:
ـ وفْقًا لعبد اللـه، سنمضي، سيُخْلَى الـمكان.
إسْتَغْرَق بضْع ثوان ليتأكَّد من أنّـه فهِم:
ـ مهلًا، مهلًا. أمُؤكَّدٌ هذا؟
ـ ما الذي سيدعوه إلى الكذب؟ ولِمَ كُلُّ تلك الـمناورة، لكي يقول كلامًا فارغًا؟
ـ لا أدري. ربّما للتصالُح معك، بعد ما جَرَّه عليك.
ـ هو التصالح، إن اتَّضَح أنّـها ليست الحقيقة.
ـ لكن متى الترحيل؟
ـ قُلْتُ لك تَوًّا.
ـ لـم أسْمَع.
ـ الليلة.
ـ الليلة. لكنْ لِـمَ يُفْضِي لك بهذا السرّ؟
ـ لإتاحة الوقت لنا للتأهُّب، في ما أظُن.
ـ وإلى أين نذْهَب؟
ـ لـم يقل.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

نَزَل الليل وسمعْنا وقع خطواتٍ من ناحية بناء الإدارة. هُرِع الرفاق ـ ال.مُكَلَّفون ال.مراقَبة ـ إلى النوافذ، واسْتَرقوا النظر، مُتَعَلِّقين بقُضبانها ليصيحوا مُعْلنين وصول البريد.

تعَرَّض توزيع البريد هنا لارتياكٍ فاق ما كان في القلعة، حيث جرى يوميًّا أو كاد. من ال.منطقيّ أنّ ما يُرْسِلُه الأقرباء، عبر وزارة الداخلية في العاصمة، يبلغ القلعةَ في وقتٍ أَسْرَع وبنظامٍ أفضل. على أنّ سببًا آخر في تأخير توزيع البريد في الفيّوم، هو وُجوب إعادة فَضِّ الرسائل السابق فَضُّها في الوزارة، وقراءت.ها مرَّة أخرى في كُلِّ سجن. عندئذٍ تُرِكَت الأمور ت.مامًا لتقدير ال.مأمور. والشيء نفسه بشأن الرسائل التي نبعثُ ب.ها إلى أقربائنا كلّ أسبوعَين. إذ يُدّقّق فيها بعناية، للتَحَقُّق من أنّنا لا نُدْلي بأيِّ بيانات عن موضع احتِجازنا وملابسات.ه. أمّا النقيب حمدي، فل.م يَحْرِم نفسه مُتْعَة تذْكيرنا بالجانب التَعَسُّفيّ من سلطة الرقابة تلك؛ فبعد أن يسْتَقْصي ما في الرسائل، يحْتَفِظ لنفسه بالحقّ في توزيعها على نحوٍ مُتَقَطِّع، وفي أوقاتٍ غير مُنْتَظَرة.

بعِل.مِنا بتوزيع وشيكٍ للبريد، أُصِبْنا، أنور وأنا، ببلَبَلَةٍ لا ترجع لل.مفاجأة، بل لسؤالٍ خطَر لَنا على الفَور: هل للتوزيع شأنٌ بأمر إتْمام الترحيل الليلة؟ الترحيل يتطَلَّب الكثير من التجهيزات؛ فهل ل.م يزل لدى النقيب فراغٌ، ليؤدّيَ دور ساعي البريد؟ ربما تأجَّل الترحيل أو أُلْغِي لأسبابٍ خافيةٍ عنّا. ما ل.م يَثبت أنّ النبأ كاذب، أنّ ما قال.ه عبد الل.ه ل.م يكن ل.ه أساسٌ من الصحة.

أعلن ال.مُكَلَّفون ال.مُراقبة:

ـ وَلَج حمدي لتَوِّه العنبر الآخر.

رأيْتُ في عينيْ أنور الاضطراب ال.متزايد نفسه الذي ساوَرَني. صار احت.مال الترحيل أقلَّ فأقلّ. لكنّنا ل.م نسْتَشْعر حاجةً إلى ذِكرِه بيننا. هذه اللحظات التي نواجه فيها ال.مجهول، ثنتنا عن الكلام؛ كأنّ الانتظار يُخَدِّر تفكيرنا ويث.بِّط أحاسيسنا، إلى أن يُ.حلَّ اللغز.

فُتِح باب عنبرنا بقَرْقَعَة، ليَظْهَر على عتبت.ه النقيب حمدي. وقفْنا، كُلٌّ منا قرب فراشه. تقَدَّم حمدي برفقٍ إلى الداخل، مُلْقِيًا حوْلَه نظراتٍ أخْفَتْها عنّا نظّارت.ه السوداء الأبديّة، وقد حَمَل شاويش يقِفُ إلى يساره بكلتي يديه الرسائل، مرصوصةً بعناية. وإلى يمينه وقَف، على مَبْعَدَة، شاويشٌ آخر يُمسك بمصباحٍ كهربائيٍّ يوضح الرؤية.

عندما توجّهَت إليَّ نظّارة النقيب، لاحت على وجهه ابتسامةٌ مألوفةٌ لديّ؛ فبينه وبيني صلة يصْعُب تَوْصيفها، انْعَقَدَت يوم وصولي. ومنذئذٍ يقرأ هو رسائل نادية، يقرؤها قبل أن أقرأها أنا، يبلُغُه من نادية تقريرٌ يوْمي، عن مشاعرها ومشاغل.ها. ومن رسائلي أنا، عَرف ما تُمَثِّل.ه هي لي. عايَش وصالَنا كما لن

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يُقدّر لغيره أبدًا. لـم أسْتَطِع حَدْس سِرِّ ابْتسامتـه.

راح يتناوَلُ مظْروفًا تلْو آخر. تالِيًا بدِقَّة اسم الـمُرْسَل إليه، الذي يتقدَّم عندئذٍ نحْوَه، ليَلْقى نصيبَه مثلـما في احتفالٍ لتوزيع الجوائز. توالَت الرسائل؛ ولفَزَعي، بدأت الرِزْمة ـ التي في يدي الشاويش ـ تتناقص. لـم يَبْقَ غير دقيقتَين أو ثلاث دقائق على تَحَمُّلي الـمصيبة: هذه الـمَرَّة ـ ربّما ـ لن يكون لي أنا نصيب. ماذا سأفعل عندما ينتـهي التوزيع؟ يا للُّغز! بجانبي، تَلَقّى أنور رسالة من أسْرَتِه، لكنّـه لـم يفُضَّها. إنتظَر، من أجلي.

عندئذٍ كان ما لـم يَحْدث من قبل. أحْسَسْتُ حولي مُلاحقة العيون بصمت، لا من الطُّلّاب القليلين فحسْب، بل ومن القدامَى أيضًا: خصومي. كُلُّهم عرفوا أنّ نادية تكتب لي يوميًّا. صارت رسائلـها أيقونة الـمُعْتقَل، دليلًا خارقًا على الوفاء. كانت مجموعة الرسائل التي تصلني، كُلَّما وُزِّع البريد، احتفالًا مُبْهِجًا، جَذْوَة أملٍ يستعصي التعبير عنه، يَحْدو الجميع. فرضَت نادية الاحترام حتّى على أولئكَ الذين قاطعوني. هي بنيلوبي؛ حتّى إن لـم أكن أنا في نظرهم أوليس، وحتّى لو لـم أكن جَديرًا بـها، فإنّ ما شغَلَني ساعتـها صار شاغلَهم جميعًا.

جاءت الرسالة الأخيرة. لـم تكن لي. إذًا فالصورة التي تَبَدَّت لي البارِحة ـ في كابوس اليقظة الـمُرْعِب ذاك ـ لـم تكن هذيانًا. إنّما استُوحِيَت من قرارٍ اتَّخَذتـه نادية. أدْرَكَت هي أنّـه آن أوان افتراق طريقَيْنا. أعْرَبَت لي عن هذا بقسوة، لكن كما ينبغي، مثلـما يفعل مِشْرَط الجرّاح. لقد انتقلت إلى السنة الرابعة بكليّة الطب، وقد أبقى أنا حيث كُنْت ـ في الثالثة ـ ولا أتَقَدَّم أبدًا. ستَتَخَرَّج، وسأظلُّ خائضًا في بيت التيه الـمُوحِل هذا، من سِجْنٍ إلى آخر.

لـم يستَدِر حمدي على عقبَيْه. ظلَّ مُرْتَكِزًا حيث هو. عندئذٍ لـم يعد لديَّ شكٌّ في أنّـه يَرْمُقني. لقد وعَى أنّ أحد الطقوس أُبْطِل، وراح يقيس أبعاد ذلك التَّطَلُّع الغريب الذي تـمَلَّك كُلَّ من في العنبر. لا بدّ أنّـه استـمرأ تلك اللحظات التي جسَّد هو فيها القَدَر.

ثمّ من خلف ظَهْره ـ كأنّما بحيلةٍ من حِيَل الحواة ـ أبْرز رزمَةً أخرى، أضْأل من سابقتـها. لـم ينْتَهِ الأمر إذًا. تنَفَّس العنبر بأكملـه الصعداء. لـم يقرأ اسمًا. بدا عليه أنّـه يتثّبت من وزن ما بيده، ليمدَّها إليَّ بالرزمة، من دون أن يَنطِق بحرف. إرْتَجَفتُ بكُلِّ جوارحي. لـم أمْلِك إلّا أن أجْهَش بالبكاء.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[15]

مرَّت أيّام القَيْظ الشديد؛ وبعد إجازة الصيف، اسْتَأنَفْنا لقاءاتنا في ظِلِّ شجرتنا.

أسْتَرْسِلُ في كلامي، وعينا نادية تحْتَضِنانني. أحيانًا ـ إذ تُقِرُّ ما أقول ـ يضيء وجهها حتّى يكاد يُخْسِف الشمس. كُلُّ ابْتِسامةٍ من ابْتِساماتها، كانت إشْراقَ نهارٍ.

لم يَغِبْ عنِّي أنّ تلك المُهْلة السحريّة لن تدوم. رَضيت، أو اعْتَقَدْت أنّني رَضيت. برغْمَ ما ينازِعُني، قرَّرْتُ أن أعيش اللقاءَ لذاته، من دون أن أطْرَح على نفسي أسئلة، مع إحساسي بأنّ كُلَّ لقاءٍ قد يكون آخِرَ لقاء.

في ذلك اليوم تقاسَمْنا ساندويتشات، ودار حديثُنا عن شتَّى الموضوعات. بدَت لي نادية من حينٍ لآخر شاردةً، على غير عادتها. سألَتْني فجأةً:

ـ كم الساعة؟

بالنظر إلى زاوية ظلّ الأشجار، حدَسْت:

ـ تقْتَرِب من الثانية.

إخْتَلَسَتُ نظرةً إلى ساعتها. لاحظَت هي، منذ وقتٍ طويل، خُلُوَّ معْصَمي من ساعة، لكنّها لم تُظْهِر ذلك قطّ.

ـ أنا في طريقي.

قامت قائلةً وقد أوْلَتْني ظهْرها:

ـ يريد أبي التَعَرُّف بك.

أرادت لصوتها نَبْرَتَه المعتادة، الطبيعيّة والواثقة، لكن بشيء من الجهد، كأنّما للسيطرة على اختلاجٍ سبَّبه انفعالٌ مفاجئ. وقَفْتُ أنا بتأثير الصدمة، غير قادرٍ على الْتقاط أنفاسي.

تهاوَيْتُ ورأسي بين كفّيَّ، تائهًا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[16]

ما فتِئ ليلُ الـمُعْتقَل يكيل لنا ضرباتـه.

وأنا غارقٌ في رسائل نادية، أعُبُّ من نبع الحياة ذاك الذي ظنَنتـه نَضَب، اِسْتَشْعَرْت أوّلَ ما يسْتَشعرُه من روَى ظمأه بعدما تيَقَّن دُنُوَّ الـمَنِيَّة، أحسستُ أنّني بُعِثْت من الـموت.

ويـجيء من الخارج صوْتٌ، فيعاود الـمُكَلَّفون الـمُراقبة اتـّخاذَ مواقعِهم. نظَرْتُ إلى أنور، التائق مثلي إلى تَسَلُّق النوافذ هو الآخر.

لقد ولَج حمدي العنبرَ الآخر، وأخذ يتلو ما بِيده. تطَلَّع الـمُكَلَّفون الـمُراقبة إلى التقاطِ إشارةٍ خاطفة عبر النافذة من الـمُكَلَّفين الـمُراقبة في العنبر الآخر. هو بالفعل الترحيل الذي أُنْبئ به. حمدي يتْلو قائمةً بالأسماء. على الفَوْر ساد العنبرَ اضطرابٌ محمومٌ، وجَرَت بين الزعماء ونُوّابهم مداولات، ووجوههم مُسْوَدَّة وعليها سيماء القلق.

بغتةً انْتَفَضْت. إن كان ما بِيد حمدي قائمةً، فإذًا لن يرحّل سوى البعض، على عكس ما أوْحَى لي به كلام عبد اللـه الـمُقْتضَب، أو بالأحْرَى ما رغبْت أنا في أن يوحِي إليَّ به. كان انْطباعي أنّ الترحيل سيشملني أنا وأنور. لـم يَخْطر لي ـ لحظةً واحدةً ـ احتـمال التفريق بيننا، إذا جَرَى ترحيل.

حتّئذٍ، استحال أن أتصَوَّر التَمَزُّق. ما من حكمةٍ في الفصل بيننا. كُلٌّ منّا تـماثلت مسيرتـه السياسيّة بمسيرة الآخر، وعلى الأرجح، ارتبط ملفّي بملَفِّه في أدراج وزارة الداخليّة. لكن متى تعَلَّق الأمر باستِبار مقاصد سجّانينا، لـم يكن إعمال الحكمة إلّا انْخداعًا؛ فمَنْطِقُهم لا يَنِي يناقِض مَنْطِقَنا، وهدفُهم منْعُنا من اسْتِبْصار ما ينوون فعلَه بنا. ما أمكن أن نعتـمِد على غير الحظّ، وهو لـم يخذِلنا قطُّ.

فُتِح الباب، وظهَر لنا حمدي:

ـ ترحيلٌ فَوريٌّ. على من تُتلَى أسماؤهم أن يـجمعوا أمْتِعَتَهم.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لِ.مَحْتُ شُحُوبَ وجْه أنور، مُثبِّتًا عينَيْه عليّ. جرى كُلُّ شيءٍ بأقْصَى سرعة. ذُكِر اسمي من بين الأوائل، وضمَّتِ القائمةُ معظم القدامَى. لِ.م يكن أنور من الـماضين.

وجَب عليّ أن أكون قويًّا، من أجلنا نحن الاثنين. إغرورقَت عيناه بالدموع. وإن لِ.م أذرفها أنا، فلِما ملأني من سخط، من حنَقٍ مشْلول.

ت.مْـتَم وأنا أعانقه:

ـ لِ.م تكد تعود من ذلك الـ.محبس اللعين.

بَرَّحَ بي التفكير في العزلة التي سأتركه يعانيها، في ذلك الثَّقْب، بجوار سريرٍ لن أشْغَلَه من حينها قصاعدًا. لَشَدّ ما قلَّت قُدْرَتُه على الصمود عن قُدْرتي! منذ اعْتقالنا لَزَم حضوري لبَعث الطمأنينة فيه، لِ.مساندت.ه. هذا ما وَضَح لنا نحن الاثنين. وها أنذا لا أعود أمْلِك لِ.ه شيئًا؛ لائمًا نفسي، وكأنّني أنا الذي قَرَّرتُ التَخَلّي عنه.

تجاسَرْت، قائلًا:

ـ في هذه الـ.مرَّة، سيكون لرحيلي نَفْعٌ في أمرٍ واحدٍ على الأقلّ، هو أنّني سآخذ معي كبارَ الزعماء أولئك كلّهم الذين يُنَغِّصون عَيْشَك في العنبر.

لكن لِ.م نكن لننزلق إلى الإعراب عن أمانٍ نعرف أنّ.ها بلا جدْوَى. لِ.م يوجَد ما يمكن تبادلُه من كل.مات الـ.مواساة. أخَذْتُ حقيبتي ومضَيْتُ من دون أن ألْتَفِت ورائي.

كُنْت من أوائل من غادروا العنبر، والجوُّ خارجه شديدُ البرودة؛ أرتدي بلوفري الوحيد وفَوْقه السُتْرة التي كانت عليَّ حين اعْتُقِلْت. بدأت أرْتجِف. تولّى سجَّانون مُتَراصُّون بفارق أمتار بين الواحد منهم والآخر، تبْيان خطّ السير لِ.مُرَحَّلين. وجَب علينا الدورانُ حول جزءٍ من عنبرنا، ثم حول جزءٍ من العنبر الآخر، لنبلُغ الفناء الخارجي لل.مُعْتقَل. لِ.م نُعانِ من طقوسٍ كالتي جَرَت يوْم استقْبالنا، قبل.ها بشهور. جرت العمليّة بلا بطْش، بل وكأنمّا برِفق.

جاءتنا تحيّاتُ الوداع عبر قضبان النوافذ، ممّن تزاحمَوا خلفها؛ وأنا متأكِّد من أنّ بعضها مُوَجَّهٌ إلي. لكن لِ.م أدْرِ ممَّن، لتعَسُّر ت.مييز الوجوه والأصوات. لَوَّحْتُ بيدي مُ.جيبًا، في الفراغ. سيعرف أنور أنّ.ه الـ.مقصود.

ساد الفناءَ الخارجيَّ ضوْءٌ شاحب تبْعَثُه مصابيحُ عفا عنها الزمن، فبدَت الوجوه كأنّ.ها لِأشباح. تصادف وقوفي أمام مجموعةٍ من مُرَحَّلين خرجوا من العنبر الآخر. لِ.م أُرِد مبادلة الحديث أحدًا. خطَوت بعيدًا، بضعة أمتار، مُسْتَنْشِقًا الـ.هواء بقوَّة، محاوِلًا الاسْتدْفاءَ بعض الشيء، وما من فكرةٍ تجول بخاطري.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

محمّد هو من رآني. إسْتَوْقَفَني، فاتحًا ذراعَيه أمامي. ل.م أدْرك أنّ.ه هو إلّا بعد لحظات.

ـ ما أسْعَدَني بلقياك!

ـ وكذلك أنا.

ل.م أكن كاذبًا. فَرِحْت باستعادتي حضورًا يبْعث ما هو غير جَوِّ السجن... عائدًا بي إلى حياةٍ ماضية، أمسيات ذَرَعْنا فيها دُروب القاهرة، نحلُ.م بمصر جديدة، وأضواء الحريّة وصخب.ها. لكن كذلك ذكّرَني مرآه حت.مًا بتلك الحكاية العراقيّة ال.مُشَوَّشَة. ل.م تفارِقْني شكوكي، ال.مُشَوِّهة للصورة.

بدأنا حديثنا بالسؤال الذي ل.م يشْغَلْنا غيره، عن وجْهَتِنا. ل.م تُتَحْ لأيِّنا أدنَى دلالة تُهَدِّئ بالَه. ل.م يمنعنا هذا من طرح جميع الافتراضات، كأنّما بالضرورة ستَثْبُت ـ في النهاية ـ صحّةُ أحدِها.

قال محمّد:

ـ في جميع الأحوال، فلْنأْمَل ألّا تكون وجهتُنا أبو زعبل.

ـ ل.ماذا خطَر لك أبو زعبل؟

ـ هي إشاعة، وإن ل.م يشَأ الزعماء أن تُذاع.

ـ ما هي الإشاعة؟

ـ أنّ مُعْتقَلنا هذا ليس إلا اختبارًا مقارنةً بأبو زعبل، حيث العَناء على أشدِّه.

قبل أن تصل الشاحنات، وقَف النقيب حمدي بالقُرْب من البوّابة، وحول.ه ستَّة ضبّاطٍ ل.م تسبق لي رؤيت.هم.

قال محمّد:

- هؤلاء الضبّاط هم الذين سيتَسَلَّمون الطَرْد الذي هو نحن، ويؤمِّنون طريق سَيْره، وحال.ما يوصِلونه، سيؤوبون إلى ديارهم، إلى أُسَرِهِم، فيأكلون ويضاجِعون وينْعَمون بنوْمٍ هنيء. قاموا بواجبِهم، بل وقد ينالون مكافأةً على هذه ال.مهمّة ال.مسائيّة.

بدا عليه التَرَدُّد لحظة، قبل أن يضيف:

ـ أداء الواجب بأمانة، راحة الضمير، لا بأس. لكن عن جدارة، أليس كذلك؟ هؤلاء شُبّان ناجحون، دَرَسوا القانون. يُفْتَرَضُ ألّا ي.جْهلوا أنّ صحيفة سوابقنا خالية، وأنّنا ل.م نَمْ.ثُل أمام أيِّ محكمة، ول.م نُتَّهَم وَل.م نُدَن، أي أنّ.ه ي.جب أن نكون اليوم أحرارًا مثل.هم. هذا غير مُحْت.مَل، عَبَث.

ـ ما يفُوقُه عَبَثًا هو أنّ هذا الرَكْب يضُمُّ بعض القدامَى الذين وصلوا إلى هنا منذ

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أسبوعَيْن، آتين من القلعة.

ـ كلا. سيكون أقْصَى العَبَث أن يرحلوا عن هنا، ليعادوا إلى القلعة.

وهو يواصلُ كلامه، تزايد شعوري بالذَنْب لاسْتِمراري في الشكِّ فيه، وعَجْزي عن قَطْع شكِّي ذاك وإغْفال.ه من البداية. ل.م أُرِد نَبْش ال.موضوع، ولكنّ.ه هو الذي عاوَد فَتْحَه:

ـ أتَظُنُّ أنّ.ه كان عليّ أن أبقَى في العراق؟

أجبْت بلا تردُّد:

ـ أجل.

طأطأ رأسَه:

ـ لا تنفَكُّ هذه ال.مسألة تشغلني. إنّما اسْتحال أن أبقَى ثمة. بات الجَوُّ خانقًا. لن أقول إنّني آثَرْتُ السجن في مصر على الحريّة في العراق. كُنْت أعْلَم أنّني أجازف بفُقداني الحريّة إن عُدت، وإن ل.م يكن هذا مؤكَّدًا.

ـ بالرغم وَجَب أن تُدْرِك مدى ال.مخاطرة. هل أدرَكْت أنك تُعَرِّض أسْرتَك للخطر؟

ـ وما دخْل أسْرتي بال.موضوع؟

ـ أليس أفراد من أسْرتك هم من سهَّلوا لك مغادرة مصر، ثم الذهاب إلى العراق؟

ـ لكنّ الشرطة هنا لا تعرف من هم الذين عاوَنَوني.

ـ بالضبط؛ فبرجوعك إلى مصر ستتيح للشرطة فرصة العِلْم بهم.

ـ لكن... كيف؟

ل.م أحَوِّل بصَري عنه، فيما عَبَّر وجهُه عن حَيرةٍ بالغة. نطَقْت كُلَّ حرف بتؤدة، وبل.هجةٍ عادِيَّة:

ـ بواسطة ما يُتْقنونه، بإخضاعك لاسْتِجْوابٍ مؤذٍ.

رفَع رأسَه بفخر. وقال بصَوْتٍ شِبْه مَشْروخ:

ـ أفتظُنُّني بالبائح... بالواشي بأقاربي؟

ـ ل.م أقُلْ هذا. لا أحد يعْرف ما يمكن فعْلُه في هذه الأحوال، حال.ما اقْتُنِصْنا. كُلُّنا نعْتَقَد أنّنا سنصْمُد. في ما يخُصُّني، يُريحني أنّ.ه ليس لديَّ ما أُخْفيه.

واصل التَحْديق فيّ، حائرًا.

ـ ستبوح، أنت؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ بودِّي أن أوقِن أنّني لن أبوح. لكن...
قاطَعَني:
ـ أنا أعل.م. لسْت أنت بمن يُفشي.
لَقّنَني درْسًا مُفيدًا. أنَّبْت نفسي على إيحائي إليه بإمكان شكّي فيه. لكن سرعان ما انتَقَل إلى موضوعٍ آخر:
ـ هذا النقيب حمدي، بنظّارت.ه ال.محتومة. لا بدّ أنّ.ه يعاني من العينين.
ـ حقًّا ل.م يواتِني هذا الخاطر.
ـ أثناء النهار: لا مانع. ولكن ليلًا؟
ـ قد يتبادر كذلك إلى الذهن أنّ.ها لإخفاء عينيه، لكيلا نقْرأ أفكارَه.
ـ على أيِّ حال، هو مريض.
وقَفْنا حيث مجموعة الضبّاط، وأنا متأكِّد من أن حمدي ينظر إليّ، بل يثبِّت عينَيْه عليّ، لأنّ.ه ل.م يُحَوِّل وجْهَه عنّي. أدْهَشَني إصْراره الذي بعَث فيّ كَدَرًا زادَت.ه ابْتسامتُه. ل.م تكن الابتسامة نفسها ساعة تسليمه لي رسائل نادية. ل.م تعد هي السخرية، بل الجفاء.
محمّد نفسه لاحظ تلك النظرة. همَس لي، كأنّ.ه يخشَى أن يُسْمَع:
ـ لا رَيْب في أنه يتَفَرَّس فيك وكأنّ بينكما شيئًا ما.
ـ ألا تعرف؟ إنّ.ه على عِلْمٍ بأدْنَى خَلَجاتي. هو يقرأ رسائل نادية، وبما أنّ.ها تكتب إليَّ يوميًّا.
ـ ما زالت تكتب إليك؟
ـ حتّى الآن، ما زالت.
فات.ه التحَفُّظ الذي أبْدَيْت.ه، مكْتَفيًا بالإعجاب بما ي.جري.
ـ ما أسْعَدَك!
وَدِدْت الحديث عنها، لكنّني أحْسَسْت أنّ حديثي سيبْتَعِث ـ لديه مثل.ما لديّ ـ سؤالًا صامتًا: حتّى متى؟
تراجَعْت.
إستأنف محمد الحديث عن النقيب:
ـ مهما يكن، فهي نذالةٌ منه أن يَهتِك ستركما إلى هذا الحد.
ـ هو ما تُ.خَوِّل.ه إيّاه السلطات.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ أجل، ولكنّ.ه يسيء اسْتغلال.ه. هذا الشخص، لا تَرُوقني ابْتسامت.ه.
عاد يُغَيِّ.ر ال.موضوع:
ـ آمل أن يضعونا في الشاحنة نفسها. لِدِفْء الصداقة فائدة، ونحن في الأغلال.
ل.م يضعونا في الشاحنة نفسها. خضَع تشكيل مختلف الجماعات ل.معايير لا تَسْبَر. وجَدْتُني مُقَيَّدًا إلى عُصْبةٍ من القدامَى، بلا أيِّ رابطٍ بينهم وبيني، بل ولا الترتيب ال.هجائي. ستكون ال.ميزة الوحيدة للتلاصُق هي بَثُّ بعض الدفْء، للتحايُل على برد الليل.
مرَّةً أخرى، شعرْت بنفسي وحيدًا ت.مامًا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[17]

قَدَّمَت لي نادية ـ على صُحْفَةٍ من ذَهَب ـ ما يحل.م عشرات من الشُبّان بنَيْل.ه. لكنّني ل.م أكن مُتأهِّبًا البتَّة لحدَثٍ كهذا. سيكون لقائي بأبيها انْتزاعًا لغراميّاتنا من مجال الأحلام، وغَرسِها في صميم العلاقات الاجت.ماعيّة. في الكثير من مسؤوليّات متشابكة، غير مُتَوَقَّعة.

فاتَحْت أُمّي بذلك في اليوم نفسه. شَدَّدْت على ما ستَتَعَرَّض ل.ه حياتي من تَشَتُّت، بسبب زيارتي لوالد نادية، التي تكاد تُ.مثّلُ طلب يدها للزواج؛ وأنا لست إلا طالبًا في السنة الثالثة بكلّيّة الطب، ولا أمْلِك دِرهمًا واحدًا.

ل.م تُعِر أُمّي انْتباهًا لتلك الاعتبارات. ناشَدَتني الكلام عن نادية، رأيت وجهها يُشْرق رويدًا رويدًا، وعينيها ـ اللتين يغشاهما عادةً حُزنٌ مُستَسْل.م ـ تشِيان بشيء من الارتياح.

قالت:

ـ هذه الفتاة هبة من السماء.

صمتَت بُرهةً، ثم قالت:

ـ كم من ال.هبات تظنُّ أن السماء ستُنْعِم ب.ها عليك؟

ـ هي من عالَ.م غير عالَمِنا. ل.ها أن تتَطَلَّع إلى أفْضل ما في الحياة.

ـ ولِمَ لا تسْتَحِقُّ الأفْضل، أنت الآخر؟

ـ أجل، أعرف ال.مَثَل القائل إنّ الابن في عيني أُمِّه هو الأجمل.

ـ من أين أتَيْت بهذا ال.مَثَل؟

ـ إنما أجْرَيْت عليه بعض التعديل.

ـ كلّا. في ال.مَثَل أنّ القِرْد في عَيْنَي أُمّه غزال. أنا أراك كما أنت، في جمال الغزال. وإلّا فلِم تريد نادية أن تُعَرِّف أباها بك؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ لا أدري، يا أُمِّي.

ـ إذْهَب لـملاقاة أبيها.

وجَدْتُني أمام خِيارٍ لا مَفَرَّ منه. لكن على أثَرِه ـ مهما كان ـ لن تعود الأمور كما كانت؛ فإمّا ستَظْهَر لي نادية بصورةٍ جديدة، صورة القرينة، وإمّا لن تعود تَظْهَر في حياتي. قضيْتُ الليل محمومًا، أُقَلِّب بين احتـمالَي الكدَر الناتج من القبول والألـم الناتج من الرفض، وفي كُلٍّ منهما شوكةٌ ستنْشَب فيّ، كأنَّ بيدي قنبلةً لن يتأخَّر انفجارُها.

لا مِراء في حَقِّ والد نادية في اختبار العَيِّنَة التي تَعْرِضُها عليه ابْنتُه. لكنّ هذا الـمفهوم لكَوْني موضعَ اختبارٍ كهذا، هو وحده أرعَبَني. لو كُنت أنا ذلك الأب، لَمارَسْت حقّي في حماية جوْهَرَتي الـمكْنونة، لكن علامَ سيبني رأيَه؟ على الـمال أم على الـمركز الاجتـماعيّ أم على النَسَب العائليّ؟ كلّ هذا يَنْقُصُني. لا بدّ أنّـه عرف هذا من نادية. يقينًا أنّ طبيبًا كالذي سأكونه ـ كما ذَكَّرَني أنور ـ هو ذو شأنٍ ما، لكن لِوالد نادية أن يطْمَح إلى ما يفوق هذا بكثير. لا يبقَى سوى اختبار ملامحي الشخصيّة: أسلوب تفكيري، وآرائي السياسيّة. هذا الاحتـمال لـم يُسْعدني.

منذ طفولتي التي شَهدْت خلالـها ـ وبعدها ـ العديد من الاحتفالات التقليديّة بالخطوبة والزواج، عاهَدْت نفسي ألّا أقوم بمثل هذا أبدًا. إن كان لي أن أتَزَوَّج يومًا، فبلا أيِّ احتفال. ليس إلّا الإجراءات الـمشروطة قانونًا: شاهِدان والـمأذون الشرعيّ.

بمجيء الصباح، خِلْتُ أنّني توَصَّلْت إلى مدخلٍ للـموضوع. سأقول لنادية إنّني لا أسْتَشْعِر في نفسي القُدْرَة على ملاقاة أبيها، فيما افتِقاري حتّى إلى ما أرْتديه ليليقَ بالـمناسبة. ستكون طريقةً لائقةً للرفض، من دون إبدائه.

ما إن لقيتُها في مجلسها الـمُعتاد، إلا نسِيت كلّ شيء. لـم تكن نادية هي نادية نفسها. للـمرَّة الأولَى، لـم تكن لـها النظرة السامية نفسها، بل أخرَى، مُشَوَّشةٌ وقَلِقة، تكاد تكون مُتَهَيِّبة. قطُّ لـم تكن قد بَدَت لي نظرتـها جميلة بهذه الـمرارة والجلال معًا. قالت:

ـ مَرَّت علينا ليلةٌ مُضْنِية، نحن الاثنين.

نحن الاثنان. هاتان الكلـمتان عَصَرَتا قلبي. ذَكَّرَتني نادية، أنا الذي قضيْت الليل أجْتَرُّ مخاوفي، بأنّ الشأن ليس شأني أنا، بل شأننا نحن الاثنين، لكي نبلغ ما هو نحن الاثنان هذا، سِرْنا طريقًا طويلًا. وهي التي اتَّخَذَت في كُلِّ مُنْعَطَف الخطْوَةَ الأولَى. هي اختارتني. هي جاءت إليّ. هي قَطَعَت ما يربطها بعديدٍ مما هو مُهَيَّأٌ لـها من أطرافٍ أخرَى. هي قرَّرَت أنّني أنا الذي لـها. لـم تحْتَفِظ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لنفسها بأيِّ خطٍّ رجعة. تقَدَّمَت. حادثَت أباها عنِّي. وباتت تضعني أمام هذه البديهيّة التي كادت من فرط نُصوعِها تُعميني: ما خاطَرَت به إذ أحَبَّتْني... ثقَت.ها فيّ، التي تضعُ على ال.مِحَكِّ ثقتَها بنفسها. هذا بلاغُها إليَّ: أنها جاءت في هذا الصباح خاوية اليدين تتَرَقَّب أن أرْتَضي حُبَّها.

لحظتَها ودِدتُ بكُلِّ ما فيَّ أن نكون وحدنا، كي أرْكع أمامها وأغمُر يديها بالقُبل، وألْتَمِس عَفْوَها ال.مَرَّةَ بعد ال.مَرَّة.

قُلْت، متلَعْثمًا:

ـ متى أستطيع مقابلة أبيك؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[18]

جاوَب وفاءُ أوليس وفاءَ بنيلوب.ي التي انْتَظَرَت.ه عِشرين عامًا، وفي النهاية انْتَصَر حُبُّهما على اللَعْنَة ال.مُنْزَلة. ونالا حُنُوَّ زيوس.

هو نصيبُ أبطالِ هوميروس، أن يشوبَ آلهتهم ضعفٌ بشري. أنا ونادية واجَهْنا عَدُوًّا من نوع آخر ت.مامًا. ل.م يكن النظامُ السياسيّ ال.مصريّ بشَرًا، بل نوعًا من الكوارث الطبيعيّة. ل.م يكن هدفُه نَيْلَ شيءٍ منّا، فغايتُه القصْوَى جَعْلُنا حطامًا.

عليَّ أنا التَصَدِّي لِلَعْنَت.ه، لا على نادية؛ فهي ل.م تستثِرْ صواعِقه. لقد تَحَمَّلَت.ها عن حُبّ، لكن أيدوم الحبُّ إلى الأبد؟ لقد مَلَكَت أكثر ما يمكن من خِياراتٍ أتاحَتْها ل.ها الحياة. يستحيل أن تُواصِلَ اكتفاءَها بأبعَدِها عنِ ال.منطق السليم. قد يكون رفْضُ العديد من ال.متقدّمين لخطْبت.ها، أسْهلَ عليها من مقاومةِ ضُغوطِ وسَطِها الاجت.ماعيّ، وأسرتِها، وأبيها. قد يُمْكِنُها أن تصْمُد حتى تسْتَكمِلَ دراست.ها، لكن بتخَرُّجِها من كليّة الطب، لن يعقل إصْرارُها على أن تنوء يوميًّا بالحِمل الذي هو أنا.

عَصَر قلبي ذلك الخاطر، أنّ.ها ست.هْجُرُني. إنّما بقَدْر تعاظُم حُبّي ل.ها، أقْنَعْت نفسي بأنّ عليَّ أنا ـ لا عليها هي ـ القيام بال.مبادرة. عليَّ أن أقول ل.ها إنّ عليها أن تنساني.

رَدَّدْت هذا في نفسي عددًا لا يُحصَى من ال.مرّات، داخل الشاحنة، ال.مارقة في جَوْف الليل كسهمٍ طائش.

ل.م يكن الطريقُ بالذي يربط تجَمُّعاتٍ سُكّانِيَّةً. ل.م يكن طريقًا ت.تّخِذه مَركَبات أخرَى. إنّ.ه مجرد شريطٍ ضَيِّق من الأسْفَلْت يشُقُّ يَبابَ الصحراء، قد يكون مُخَصَّصًا للتَنَقُّلات العسكريّة. في ضوء الفوانيس ال.مُباشر، تعَسَّرَ مَدُّ البصَر إلى ما ي.جاوز بضْع عشرات من الأمتار؛ وفيما يُحيط بنا، ظلامٌ لا يُبَدِّدُه بصيصُ النجوم.

إنْتَزَعَني من حواري مع نفسي سجالٌ مفاجئ ساد الشاحنة بِصَخبِه، وأنا في

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وسط أعضاء الحزبَين ال.مُتنافسَين، الذين قاطَعوني منذ زمن. فهم إذ وُجِدوا مُقَيَّدين ومُكَوَّمين بعضهم فوق بعض، انساقوا إلى مشاجرة كالتي يَفْتَعِل.ها أشقياء التلاميذ. البعض يقول إنّ عبد الناصر ليس مسؤولًا عمّا يُوقَع بنا من معاملةٍ تُوعِز ب.ها قوى رجعيّة في وزارة الداخليّة. والبعض الآخر يقول إنّ من العبث اعتبار الدولة مُنْقَسِمةً على نفسها على هذا النحو، فيما عبد الناصر قابِضٌ على جميع خيوطِها. هو خلافٌ ترجع أصولُه إلى النزاع السياسيّ بين الفريقَين. فهؤلاء يَعُدُّونه حليفًا يُقَدِّم رِجلًا ويؤخِّر أخرَى. وهؤلاء يَعُدُّونه ال.مُمَثِّلَ النموذجيّ للعَدُوّ الطبَقيّ. وبعد آل.مناقشات، جاءت الشتائم.

كم دُهِشْتُ من سماعي صوتي أنا ـ قَوِيًّا ثابتًا ـ يشُقُّ ال.معمعة:

ـ لكنْ بأيِّ صفةٍ تنْتَقِدون عبد الناصر؟

صمَت الجميع، مفاجَئين بأنّني تَدَخَّلْت، وربما بالأحْرَى لغرابة سؤالي. سُئِلْت ـ بصوتٍ لا أعْرِف صاحبَه:

ـ ماذا تعني؟

ـ عبد الناصر ألْقَى بنا في هذه ال.مُعْتقَلات، لأنّ.ه يريد ألّا يُدانيه في سَطوَتِه أحد. لذا تنْتَقِدُونه. وأنت.م، ما هو مَسْلَكُكم تجاهَ رفاقكم؟ لا تَفْضُلونه بأيِّ حالٍ من الأحوال. لا تطيقون أيَّ اختلافٍ في صفوفكم.

عاد الصمْت، لأُدْرِك خلالَه أنّني أتَحْتُ ل.هم فُرصةً فريدة للتآزُر ضدِّي. من حُسْن الحظّ أنّ حدثًا أكثر أهميةً طرأ عندئذ:

ـ ها نحن على طريق القاهرة.

أُغْفِلت ت.مامًا. إنصَبَّ الاهت.مام على الخارج، من حيث بدأَت تلوح ومضات الفجر الأولى. إنْدَسَّ كلٌّ من قارَب شقًّا، ليسْتَرِق النظر إلى الخارج. وتَطَلَّع الآخرون إلى مزيدٍ من ال.مؤشّرات، وهو ما ل.م يَحُلْ دون استئناف التَوَقُّعات بشأن وجْهتنا.

ما وُجِد داع لتَوَقُّع الإفراج عنّا؛ فما من مُبَرِّرٍ عندئذ للحِفاظ على السِرّ. الأنباء الطيِّبة، لا حاجة لاكْتِنافِها بالغموض. تذَكَّرْتُ ما كان من ابتسام حمدي في النهاية. ل.م يُبَشِّر بأيِّ خَير. كان على عِل.مٍ بمصيرنا؛ إن كان الحُرِّية فلَما ظَهَر بذلك ال.مظْهر الكَريه؟ لَأمكن أن يفوتني مدْلول تعبيرات وجهه، لكنّ محمّد أيَّد تفسيري. ل.م يُتِحْ لنا حمدي مجالًا للأحلام.

عندئذٍ سمعْت، كالصَدَى لِما يدور بذهْني، قَوْلَ أحدِهم:

ـ لسنا ذاهبين إلى القلعة.

لِيَعقبه على الفور قَوْلٌ آخر، باكتئابٍ مفاجئ:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ أيّـها الرفاق، يـحِقُّ لي الظَنُّ أنّنا في طريقنا إلى ليمان أبو زعبل.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[19]

ذكَرَت لي نادية العنوان ورقم الطابِق، وإنْ ل.م تَصِفْ لي البِناية. توَقَّعْتُ أن تكون إحدَى تلك العمارات الفاخرة الضخمة، فوجَدْتُها صغيرةً ذات أدوارٍ ثلاثة، لا تَتَميَّز إلا بواجهة على النيل. ل.م يَشأ البوّاب النوبي، نافِث دُخّان سي.جارت.ه في جلْستِه على الدِكَّة، أن يقف حين دَنَوْت منه. حيَّ.ي.تُ.ه شاردًا:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

إبْتَغَى التأكُّد من وجهتي:

ـ أنت صاعدٌ إلى...

ـ الدكتور خالد.

طأطأ رأسه:

ـ الدور الثالث.

كُنْت أعرف أن نادية ستكون حاضرة، وهذا ما طمْأنَني. لكن ما شغلني، هو أنّني خلال اللقاء لن يمكنني الاكتفاء بأن أكون أنا. سينْبَغِي أن أُبْدِيَ لأبيها الاحترام الواجب، أن أراعِي ألّا أُخْدِشَه على أيِّ نَحْو، ألّا أقول ما يمكن أن يُحْرِج نادية. كُلُّها محاذير لا عَهْد لي ب.ها، تُشْعِرُني بأنّني مقبل على امْتحان.

ما إن فتحَت لي الباب، بارزةً من الضَوء الخافت، متألِّقةً، إلا طَغَت فرحتي برؤيت.ها على كُلِّ ما عداها. لَكأنّ.ها بابتسامت.ها العذبة الدافئة، صارت بين أحضان.ي. ل.م يوجَد إلّا هي: لا ما ترْتديه اللائق ب.ها كأرْوَع ما يكون ولا البَهْو الرَحب، ال.مؤثَّث ببساطةٍ وأناقةٍ معًا، الذي اسْتَقبَلتني فيه لأوَّلِ مرَّة، ولا عِلْمي بأنّ أباها ينْتَظِرُني على بُعْد أمتار. ل.م يعُد مُهِمًّا أيٌّ من هذا كُلّه الذي يُومِض على تُخوم وعيي. هي سعيدةٌ، وأنا مَوْضِع سعادت.ها.

مدَّت لي يدَها. حتّئذٍ، اعْتَدْنا التلاقي والافتراق من دون أن نتصافَح. أخَذتُ

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اليد، التي ظَلَّت مُودَعةً في يدي بأيِّما رِقَّة؛ واستَبدّت بي الرغبة في لَثْمِها. هي رغبةٌ جنونيّة، لأنّ الباب خلْفي لم يكن قد أُغْلِق بعدُ... جنونية، لاحتمال ظهور أبيها خلْفها في أيِّ لحظة.

أَحَسَّت ما أحْسَستُه. سلَّت يدَها برِفْق، وأغْلَقَت الباب وسبَقَتْني إلى حجرة مكتب أبيها.

إستَقبَلني واقفًا. هو يُقارِبني طولًا، وفيه صلابة. شَعْرُه الغزير كساه الشَّيب. لا يجْمَعُه بنادية تشابهٌ كبير، سوى ربما في وجهٍ يضاهي وجهها بل يفوقُه في بروز قَسَماته، ونظرة حادَّة، تلُوح مُسْتَهْدِفةً الحُكْم عليَّ منذ اللحظة الأولَى. صافحَني بحرارة.

حجرة مكْتَبِه رحبة، يَغْمُرها الضَوْء عبر نافذتين واسعتين تُطِلّان على النيل. وسائر الجدْران مكْسُوَّة ـ من أدْناها إلى أعْلاها ـ بالكُتب. وأمام المكتَب، أربعة مقاعد مُريحة، تحيط بمنضدةٍ مُنْخفِضة.

دعاني إلى الجلوس، وبدأ، كما تَقْضي العادة، بدَعْوتي إلى شراب:

ـ دافئ أم مُثَلَّج؟

مِلْت إلى الاعتذار، كالعادة. هي بادرةٌ يدْفَعُني إليها التأدُّب، لكنّني عندئذٍ ارْتأيت أنّها لا تليق:

ـ دافئ.

ـ شاي أم قهوة؟

ـ شاي.

إختفَت الريفيَّة المُسِنَّة، بعد ظهورها المُباغِت على عتبة الباب، لم أدْرِ كيف، من دون أن تنْطِق بكلمة، لإعداد الشاي في ما ظَنَنْتُ، أو لتكليف غيرها إعداده، لتعود، وما كادت تغيب، بصينيّة. بادَلتني نظرة أتبَعَتها بابْتسامة مُحْتَشِمة. غدَوْت موضع اخْتِبارها هي الأُخْرَى. وضعَت الصينية على المنضدة وانْصَرَفَت. لَفَت نظري وضايقني قليلًا أنّ الشاي قُدِّم في أقداح على الطراز الغربي، لا في أكواب.

خلال ذلك الاستهلال المُطَوَّل، لم يكن مُثولي في حَضْرة الأب ما يُبَرِّحني كما توَقَّعْت بل وجود نادية نفسها. لَتصاغَرَت معظم الفتيات اللاتي في سِنِّها، في حَضْرة آبائهنّ. لكن ما تدين به هي لهذا الأب، كان ما عهِدَتْه في طفولتها من تَنْشِئةٍ مخالِفَةٍ للتقاليد، فشجَّعَتها على التحَدُّث بلسانها هي. لذا أكَنَّت له ما يفوق الاحترام كثيرًا، أكَنَّت راضية مشاعر متناقضة فيها اقْتَرَنَت ثقتُها بنفسها وشكرها له، شعورها بالحرية ودَيْنها لذلك الذي أراد لها

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

حريت.ها، ورعاها. حيث كُنَّا ـ في حَضْرت.ه ـ ل.م تُخْف مشاعِرها نحوي. عَبَّ.رَت لي نظْرَتُ.ها عن إقرارها لوجودي في تلك الحجرة، بكامل حَقِّي.

بدأ والدها الحديث:

ـ قالت لي نادية إنّك تقرأ كثيرًا.

إذ اكْتَفَيت بالابتسام، واصل الحديث:

ـ ما هي الكُتُب ال.مُفَضَّلة لديك؟

ـ تلك التي موضوعها ال.مستقبل.

ـ آه وال.ماضي؟ ماضي مصر العريق، أتَعْتَقِد أن علينا نسيانه؟

ـ كلّا، كلّا. لكننا نُكَرِّس ل.ه وقتًا أكثر من اللازم. بينما ما يَلْزَمُنا هو الانبِتات.

ألْقَى برأسه إلى الوراء قليلًا، كأنما ليُحَفِّزَني على الإيضاح:

ـ الإنبِتات؟

ـ التَدَيُّن يُكَبِّلُنا، يأخذ بخناقِنا منذ عشَرات القرون. نقَضي حياتنا في العمل لآخرتنا، بدلًا من العمل على تغيير العالَم. فتَقَدَّم غيرُنا، ونحن، في انْشِغالِنا بمثْوانا الأخير، ل.م نتَقَدَّم.

ـ الآن اخْتلَف الأمر بعض الشيء. لا يمكنك أن تأخذ على عبد الناصر أنّ.ه بالغ التدَيُّن.

ـ فَحْوَى كلام عبد الناصر أنه سيُغَيِّر كُلَّ شيء، بشَرْط أن يكون هو الذي يُقَرِّر كُلَّ شيء. إنْ هي إلا خدْعَة. ما التغيير الحقيقي إلّا تغيير العَقْلِيَّة، التقاليدِ، عِلّة شَلَل الأذهان طيلة ذلك الوقت. إذ يُعَرْقِل هذا التغيير، فهو يؤسِّس ديكتاتوريّ.ة تُفيدَ منها طبقةٌ جديدة. فلْنَقُلْ إنه يُشْعِرنا بكرامتنا ال.مُسْتعادة، في وجْهِ مُحتَلٍّ جَثَم على صدورنا طويلًا. إنما لن يكفي هذا لكي تصير مصر دولةً حديثة؛ فلن تقوم ل.ها قائمة إلا بالديمقراطيّة، حين ينال ملايين الناس ال.حقّ في إبداء رأي.هم.

ـ أكادُ أشاركك هذا التفكير. لكن ما دَخل ال.ماركسيّة بهذا؟ ل.م تؤسِّس الأحزابُ الشيوعيةُ الديمقراطيّةَ في أيِّ مكان. وها هو ال.مؤت.مر العشرون للحزب الشيوعيّ في الاتحاد السوفياتيّ، قد كشَف عن ال.مفاسد التي جَرَّها تأليه الفرد في شخص ستالين.

ـ في مصر مثل ما في سائر بلدان العال.م الثالث، هي التجارب الآسيويّة التي ت.هدينا إلى الطريق: الصين، فيتنام.

ـ ثمّة لا أرى سوى حُرُوب تحرير، لا ديمقراطيّة.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ـ إذا اسْتَنَدت حَرْب التحرير إلى الشعب، فتَحَت الطريق إلى الديمقراطيّة. في بلادنا ينْبَغي البدء بالثورة. ينْبَغي أوَّلًا أن يُفْصِح ملايين الـمُكَمَّمين عن آرائهم.

ـ هذا مبدأٌ أثبَتَت الـممارسة عَكسَه، في الصين مثلـما في فيتنام، بل في كُلِّ مكان. لقد أتِيحَت لي فرصةُ زيارةِ الاتحاد السوفياتيّ وبولندا والـمجر. لن تطيق الحياة في تلك البلاد. الجَوُّ خانق. الحزب مُتَغَلْغِلٌ في كُلِّ مكان، في كُلِّ بناء، وحتى داخل أذهان البشر. ما تأْخُذه على عبد الناصر، تجد هناك أضعافه.

لـم يفارقني اقتناعي بأنّـه في الصورة التي ارْتسمَت لـه عن البلاد الاشتراكيّة، فات‌ـه الجوهر. لكنّ صِدْقه في ما قال، وصراحت‌ـه الـمُخْلِصة، طمأنانني. لقد أعْرَب عن اقتناعٍ، لا عن تَحَيُّز. طَرَح حُجَجًا جديرةً بالـمناقشة. ثمّ إنّـه والد نادية، ولـم تكن زيارتي بغرَض مناقشت‌ـه في السياسة. رفَعْت الراية البيضاء:

ـ أنت تَفْضُلُني بكَوْنك زُرْتَ هذه البلاد.

ـ بل يوجد ما يفوق ما وَقَفْتُ عليه. لست ضليعًا في الـمُعْتَقَد الـماركسيّ. إنّما يبدو لي بجلاءٍ أنّ فيه انْبِتاتًا يتجاوز ببعيد ما تَبْغيه، انْبِتاتًا عن الدين يستحيل التَمَثُّل به لدينا. في بلَدٍ كبلَدِنا، ينْبَغي الفصْل بين السياسة والدين. لكنْ يستحيل تجاهُل الدين، فضلاً عن مقاومت‌ـه.

قُلْت مبتسمًا:

ـ لَـهو سجالٌ بمعنى الكل‌ـمة.

أدْرَك ما أعْنيه، وابتسَم بدَوْره:

ـ ليكن في مرَّة مقبلة. إنّ الأسئلة التي تَطْرَحُها على نفسك، تبْدُو لي أهَمّ من الأجْوِبة التي تَحْسَب أنّك توَصَّلت إليها.

لاح لحظةً كأنّـه يَزِن فكرةً ما، قبل أن يفاجِئني:

ـ تستطيع أن تنْشُر في الصُحُف رأْيَك في ما تتساءل عنه، بشَرْط كَوْنه بالطبْع على نحوٍ غير مباشر. تُثَمِّن الصُحُف الأسبوعيّة نَشْرَ مُلَخَّصاتٍ للكُتُب الأجنبية تعْرِضُها على نحو سَهْل الاستيعاب. أقْترح عليك ذلك بشأن الكُتُب التي تَشُوّقُك. أنا واثق بقُدْرَتِك على الإيحاء بما هو جَوْهري، من دون أن تَكْشِف صَدْرَك لِطعنات الرقابة. سأتَكَفَّل بضمان النشر.

ثم أضاف:

ـ سيكون عملًا مدفوعَ الأجر، بالتأكيد.

زاد من انْتشائي بعَرضِه، تَيَقُّني من دَوْر نادية فيه. إنما وجَبَت مُجابهة تَحَدٍّ:

ـ لسْتُ واثقًا بقُدْرَتي على مراوغة الرقابة، اسْتطاعتي الإيحاء بما يشْغل فكري،

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

من دون تبْيانه جَلِيًّا.

ـ هي رياضة ذهْنِيَّةٌ ممتازة. تُضَيِّق العبارة، لكنّك تَبلُغ ب.ها آلاف القُرّاء.

نهَض ومَدَّ لي يده، بغَمزة عَينٍ كالتي يتبادلُها ال.مُقْدِمون على مشروعٍ يُقَدِّرون ل.ه النجاح:

ـ ستسير الأمور على ما يُرام.

خرجَت نادية خلفي، وأغلَقَتِ الباب. أخذ قَلْبي يدُقُّ بقُوَّة. سنكون وحدنا مرَّةً أخرَى، لبضع لحظات. سأستعيد في يدي يدَها، وعندئذٍ سألْثمُها، كما عَزَمْت.

بلَغْنا البابَ الخارجي. بينما اقْتربَت منّي، رأيتُ عينيها السَوْداوَين تتوَهَّجان. ل.م ت.مدّ لي يدَها.

أحاطت عنقي بذراعيها. تعَلَّقَت بي. قبَّلَتْني قُبْلةً بلغ من عذوبت.ها ورِقَّت.ها أنّني أحسَست أنني أذوب فيها وهي التي تذوب ف.يّ، وقد ضاعَت منِي كُلُّ ال.معال.م فى لحظةٍ لا حدود ل.ها، لحظةٍ خاطفة، ل.م أدرك انت.هاءها إلّا بعدما باعدَت شَفَتَيها عن شفَتَ.يّ. دفَعَتْني برفق. فتحَت الباب، وقبل أن تُغْلِقه، قالت بصوتٍ أجَشّ:

ـ إلى الغد.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

[20]

الفَجْر.

منذ انْتَقَلَت الأسرة من الريف، ل.م يعد للفَجْر وجودٌ في حياتي. طيلة إقامتي في القرية، شاطَرَني جميع أيّامي. إعْتَدت الذهاب ماشيًا إلى ال.مدرسة الابتدائيّة الواقعة على بُعْد كيلومترات من دارنا. لكي أصل في الثامنة صباحًا، وَجَب أن أمْضي قبل الفَجر. شَهِدْتُه يبْزِغ، مُتَجَدِّدًا في كُلِّ مرَّة، على الطريق الذي تتعاقَب عليه الفصول. أحيانًا تُمْطِر السماء، وتُوحل الأرض. وأتحَقَّق جاهِدًا من موْضِع قدمي، لكي لا تتلَطَّخ ملابِسُ، لا أمْلك ما يناسِبُني غيرها. وتجيء أولَى الومضات فتُنْقِذُني. لكنْ في أغلَب الأحيان، كان الجَوُّ صَحْوًا. أحْبَبْتُ تلك الرحلة لِذات.ها، للعُزْلة التي اكْتَنَفَتْني خلال.ها، كأنّ.ها ممْلَكَةٌ اتَّسَعَت لأحلامي اللامتناهية. في الشمس التي تُشْرِق عليَّ، أعاوِد اللقاءَ برفيقٍ مَهيبٍ مُسْتَحَبّ.

ثمّ كان فَجْرٌ اسْتِثنائي.

كان ذلك خلال إجازة الصيف، حين بِتُّ بعض ليالٍ لدى أسرة والدتي في دارِهم، بقرية قريبةٍ من قرية أبي، ل.م يبْعد ب.ها العهد عن حدثٍ جلل. هو افتتاحُ مقهَى تردَّد عليه، في ال.مساء، شباب القرية، وبِصفةٍ خاصَّة العُزّاب وال.مَيْسوُرون نسبيًّا، ليحْتَسوا الشاي ال.مُرَّ ويلعبوا الورَق أو الدومينو.

ل.م يُسْمَح للأطفال بارتياد ال.مقهَى. لكنّ حضوري كان موضع القبول، بل مَفروضًا شيئًا ما. ذهب بي اثنان من أقربائي، ترْبِطُني بهما مَودَّة، لأنّني أجلب ل.هما حُسْن الحظّ، كما قالا؛ إذ يُجلسانني على مقعدٍ بينهما وهما مُنهَمِكان في لُعْبَة واحد وثلاثين مع بعض أصدقائِهِما، على رهان، وهو ما كان محظورًا بدَوْرِه. ومن حينٍ لآخر، إذ يُواتي الحظُّ أحدَهما، يُعْرِب عن شكره بالإنعام عليّ بشراب.

في ذلك ال.مساء، اسْتَعَرت ال.مباراة فاسْتَمَرَّت حتّى مطلع الفجر. عندئذٍ سمعْنا صَوْتَ ال.مُؤَذِّنِ يدعو للصلاة. توَقَّف اللعب ومضَيْنا جميعًا إلى ال.مسجد. كانت

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أوَّلِ صلاةٍ للفَجْر أحْضرُها. دُهِشْت لرؤية كُلِّ ذلك الجَمْع، لكن ما أثَّر فيّ بالأخَصّ، هو هُدوءٌ وخشوعٌ ل.م أعْهَدْه عند مشاركتي صلوات الظُّهْر أو العشاء.

ثمّ خلا ال.مسجد وظَللْت وحدي، مُسْتَلْقيًا على ظَهْري، وعيناي مُعَلَّقتان بالسَقْف، لا أفَكِّر في شيء، يأخذ بي الصَمْتُ ويغشاني ويغزوني رويدًا رويدًا. صَمْتٌ عميقٌ حَيٌّ، فيه قيل كُلُّ شيء، واسْتَقَرَّ كُلُّ شيء، ولقيت جلالًا يفوق الوَصْف. صحَوْتُ على أذان الظُهر.

بعدها ل.م أسأل نفسي قطُّ ل.ماذا تَرَسَّخ ذلك الفَجر في ذاكِرتي بهذا العُمق، ل.ماذا تكَرَّر تَذَكُّري ل.ه، فاختَ.رَق النسيان كأنه جُرْحٌ حميد...

ونحن في الشاحنة ال.ماضية بنا إلى مُعْتَقَل أبو زعبل، ل.م يكن الفَجْر في البداية سِوَى خطوطٍ نُبْصِرها من خلال شُقوقِ غِطاء الشاحنة، تُزَركِش ببشاعةٍ ما تكَوَّمنا فيه من ظُلمة. ومع الضَوء ظهَرَت لنا وجوهُنا، شيئًا فشيئًا؛ ونحن مُرْهقون من طول الطريق، وقَلِقون ممّا ينتظرنا من مصير.

سبَقَت لبعضنا خبرة في أبو زعبل. ل.م يكن مقَرَّ احتجازٍ مرتُ.جِل، ولا مُعَسْكَرًا مهجورًا ولا أيّ شيءٍ من هذا القبيل. هو سجنٌ حقًّا وصدقًا، إصلاحيَّة، أكْبر ليمان في مصر، حيث يعيش ويموت ال.مُعاقَبون في قضايا جنائيّة، بسنواتٍ من السجن والأشغال الشاقَّة. وفيه جناحٌ مُنْفَصل، يُعَدّ دارًا للإصلاح، ويُمكِن، بحَسْب ال.مُقْتَضيات، أن يُهَيَّأ لترتيبات تختلف قسوةً وعُنفًا. هو مثوانا في الأغلب. ظَلَّت مطروحةً كُلّ الافتراضات بشأن ال.معاملة التي سنَلقاها، لكنّ احت.مال إفْراجٍ قريب، تلاشَى مع الفَجْر.

توَقَّفَت الشاحنة فجأة، وأُنْزِلْنا إلى أرضٍ خَربة يصْعُب ت.ييز حدودها، مليئة بالحصَى، والبردُ شديدٌ. أسنانُنا تصْطَكُّ. ل.م أرَ الشاحنة الأخرَى، التي تضُمُّ محمّد. تزايد إحساسي بالتِيه.

فَكّوا أغلالنا ونزَعوا عنّا السلاسل؛ والحقائب التي فيها حاجيّاتنا الشخصية، التي جاءت ب.ها حاويةٌ، مُلْقاةٌ على الأرض، مُبَعْثَرة. أُمِرْنا بالْتقاط حقائبنا على عَجَل. في البَدْء ل.م أتعَرَّف على حقيبتي، إذ تشَوَّهَت وثُقِبَت وكادت تُفْتَح عن آخرها. لو ل.م تكن الرسائل محفوظةً في أكياس مُوثَقَة، وملفوفة بملابسي الداخلية، لتَناثَرَت على الأرض. أحْسَسْت بمهانةٍ وأل.م، وكأنّ نادية صُفِعَت أمام عينَيّ. أحَطْت الحقيبة بذراعي واحْتَضَنْتُها.

رحل الضبّاط الذين رافقونا منذ غادَرْنا الفيوم، ومعهم آخر ما يرْبطُنا بعالَم الخارج. بِتْنا في عُهْدة شُرْطة الليمان. إنْتَشَرَت حوْلنا فِرْقَةٌ منهم؛ ومن كل.مات قائدها ال.مُبْهَمة، فهمْنا أنّ علينا أن نعدوَ حتّى جدار حاجزٍ في موقع أدْنَى، ليضُمَّنا فناءٌ خالٍ. وثمَّة حجَب عنّا الرؤية مبنى إداريّ، اضْطُرِرْنا إلى الدوران حوْل.ه، وما زِلْنا بالخطوة السريعة لنَبْلُغ ممَرًّا يحدُّه من اليسار ظَهْر ال.مبنى،

This PDF document was edited with Icecream PDF Editor.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ومن اليمين سياجٌ من الأسلاك الشائكة، وفي أقصاه كَوّن أمامَنا عددٌ هائل من الجُنود بأيديهم هراوات، سورًا آدميًّا. عندئذ ظهَر ضابطٌ على صَهْوة جواد. وبصَوْتٍ مُرْتَفِع، أمَرَنا بالجلوس في صفوفٍ من خَمْسةِ أفراد، وبخَفْض رؤوسنا، وبألّا ننظر حوْلنا، وبأن نلزم السكوت. جلَسْت وما زلْت مُحْتَضِنًا حقيبتي.

سيطُول انتظارنا في سكون. بل يُنْذِرُنا بهُدْنةٍ غير مُتَوَقَّعة. ثمّ إذا في وسط الصمْت يُسْمَع أذان الصلاة من مئذنة لا نراها، وخلف سياج الأسلاك تظْهَر وُجُوهُ أطفالٍ بلغَ أسْماعَنا صوْتُ ضحكاتِهم الخاطفة. حَدَسْت أنّ هم أطفالُ العاملين في السجن. هي الحياة العاديَّة، تنْبِض على مَقْربةٍ منّا، بكُلّ ما فيها: ال مسجد، وال مدرسة، وال منازل الصغيرة التي بلا ملامح، والأطفال الضاحكون.

ل م يَكُفّ الضابط عن الرواح بجواده جيئةً وذهابًا، ككَلب الراعي يرْقُب القطيع.

ثم أصْدَر إلى أفْراد الصفوف الخمسة الأولى أمْرًا بالنهوضِ والسَيْرِ خَلْفَه. فساروا وكُلٌّ منهم لا يزال يحمل حقيبتَه أو كِيسَه، إلى الأمام حتى كُتْلة الجنود، ومنهم استداروا إلى اليسار، ول م نعد نراهم.

خلْفي بدأَت تدور، بين ثلاثةٍ أو أربعة، محادثةٌ هامسة ل م تبْعث منّي سوى السخرية، لعل مي مُسَبقًا بما ستُفْضي إليه.

ـ يبْدو أنه، مرَّةً أخرَى، ما كان في الفيّوم نفسه.

ـ أسنسْتَسْل م؟

ـ ينبغي أن نحتجّ.

ـ لا نَنْتَظِرَنَّ إلى أن يُنَكّلوا بنا، على نحْوِ ما جَرَى هناك.

ـ لا نعْرف ما ينْتَظِرنا.

ـ متى عرفْنا، سيكون قد فات الأوان.

ـ أوان ماذا؟

ـ هدوءًا أيّها الرفاق! لن نأتي بأيِّ تَصَرُّفٍ عشوائي، ما ل م نعْرف ما يُدَبِّرونه لنا. سنمْلك من الوقت ما نرُدُّ فيه الضرْبة بمثل ها.

حين حَلَّ دَوْر الصفِّ الذي أنا فيه، نهضْنا وسِرْنا حتّى نهاية ال ممرّ، لنستدير بعدها إلى اليسار، فنَخْتَفِي عن أنظار من بَقوا خلْفنا. عندئذٍ أجبَ رَنا حائطٌ في طريقنا على التَحَوُّلِ مرَّةً أخرَى، لكن إلى اليمين، لكي نجد أمامنا ساحةً تنْفَسِح، طُولُها مائتا مت رٍ على الأقَلّ.

ـ إجروا!

ساعت ها تبعنا عدَدٌ لا يُحصَى من الجنود، خارِجين من تلك الكُتلة، شاهِرين

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ال.هراوات. رُحْت أجري. ل.م أكن خائفًا من الضرْب، بل بحاجةٍ إلى ال.جَري.

في نهاية الساحة، وَجَدْتُني قبالةَ حاجزٍ ضخم أغبَ.ر، سجن داخل السجن، دار الإصلاح تلك، بحسب ما تبادر إلى ذِهني. أمام ال.مدْخل ال.مفتوح، جلَس إلى مِنَصَّةٍ ضابطٌ عالي الرُتبة، كما يُسْتَدَلُّ من الشارات الحمراء التي تعلُو منكبيه. وحَول.ه وقَف عددٌ من الضبّاط الأدْنَى رُتْبةً.

على بُعْد مِترٍ أو اثنين، نُصِبَت أداة التعذيب التي اكْتَسَبَت كُنْية هَزْلِيَّة، هي العروسة! يُمَدَّد زَبون.ها على ظَهْره، وتُرْفَع قدماه وتُثَبَّتان، كي تُقْرعا. وبالقُرب منها مساجين يرتدون الزيَّ الأزرق الباهت دلالةً على قضاء عقوبةٍ جنائية، يتَرَقَّبون عَدْوَنا نحْوهم.

بوصولِنا إليهم، اتَّضَح الداعي لوجودِهم. فهم مَزَوَّدون بأدوات للحلاقة. صدَر إليَّ الأمرُ بالجلوس أمام أحدِهم، فل.م يُبطئ في جَزِّ شَعْري. في تلك الأثناء، أصابني بعددٍ غير قليلٍ من ال.خُدُوش. لكنْ ل.م أملك وقتًا لإبْداء أيِّ شكوَى. ما كدْت أقِف إلّا سمعْت أمرًا بخَلْع ملابسي. لَكِزْت، وأنا ل.م أزل أحْتضِن حقيبتي. أوَّلًا خطَر لي ألّا أذْعِن. ظللتُ لحظةً من دون حراك، لكن على أثَر نظرة إنذار بخطَرٍ داهم من السجين الذي جَزَّ رأسي، عجَّلت بالانصياع كما أوعَز إليّ. حَول.ي شَرَع الرفاق بتنفيذ الأمر. وضَعْت حقيبتي على الأرض، وشَرَعْت بدَوري.

شعرْتُ بنفسي مُلاحَقًا، مَنْهوشًا. ل.م يعُدْ لديَّ مَهْرَب. تلاحَقَت ال.مُباغتات بسُرعةٍ أتاهَتني عن مُرتكزاتي. أدْرَكْتُ أنّني لا أتَّخذ ال.مَسْلَك الذي كان في مُرادي اتِّخاذُه، لكنّني ل.م أدْرِ ما هو مُرادي حقًّا. ومن بَدَني العاري، ازْرَقَّت مواضع من الإهاب، بتأثي.ر بَرد الصباح.

ثم يأمُرُني الصَوْت نفسه على الدوام بوضْع حقيبتي على بُعْد أمتار، ضمن ما تكَوَّم من حقائب آخرين. ل.م أحْتَجْ إلى نظرة تحْذيرٍ أخرَى لأعل.م أنّني ل.م أعُدْ أمْلِك فُرْصةً للاحتفاظِ بالرسائل. تخَلَّيْت عن الحقيبة وأنا كسير القَلب، كأنّني أوَدِّع نادية، فبِتُّ أحِسُّ عُريي مضاعَفًا. أثْقل عليَّ الصَمْت ال.محيط، لا يخْتَرِقُه غير صَوْت واحدٍ يُصدر لنا الأوامر من حينٍ لآخر، ونحن نرتَ.جِف من البرد. في ذلك الصَمْت، ل.م يعُدْ لنا سِوَى حُضُورٍ مُبْهَم ل.مجموعةٍ من ال.مُطيعين. بلغت مَدْخَل دار الإصلاح. دفَعَتْني إلى الداخل يدٌ تُلْقي إليَّ بزيِّ السجن. وجَدْتُني في رواقٍ طويلٍ مَحْفوفٍ بالعنابر، ول.مكان نظافةٌ مثل نظافةِ ال.مَشْرَحة.

أدْرَكْتُ أنّني أمام ضابطٍ برُتْبة نقيب، ضخمٍ طويلِ القامة، ذي نظرةٍ ل.ها زُرقة الفولاذ، يُحيط به جمعٌ من الشاويشِيَّة، مُزَوَّدين ب.هراوات، سرعان ما تَ.حَلَّقوا حولي. كادوا يلْتصقون بي. إبتغوا بفعل.هم ذاك الإيحاءَ إلي بوَهني وضآلتي،

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

بينما أفْتُرِض أن تَقْضيَ عليَّ نظرةُ النقيب الزجاجيّة، ال.مُسَدَّدَة إلى عُريي. فجأةً وعيت ت.مامًا تفاصيل ال.مَشْهد، كأنّني أرقُبُه من خارجِه. هؤلاء يرُومون الإجهاز على ما بقي من سيطرتي على نفسي. وهذا أتَى بنقيض مرامهم. ل.م يَعُدْ لديَّ خَلْطٌ ولا تَحَيُّر. عَل.مْت أخيرًا أين أنا: في أرض الأعداء، مُنْتبِهًا، مُتَحفِّزًا.

بصوْتٍ رتيب، بدأ النقيب بطَرْح أسئلةٍ عاديَّة، عن اسْمي وسنِّي ومهنتي وحالتي الاجت.ماعيّة. وفجأة وبلا ت.مهيد سألني:

ـ أنت شيوعيّ؟

على الفور اسْتَشْعَرْتُ الكمين. إن أجَبْت بالإي.جاب، فسأُمطَر بالضربات لكي أنفي التُهمة. وإن بادَرْت إلى الإجابة بالنَفْي، فقد رضيت بإذلالٍ ل.م يكن ذلك الاسْتِجوابُ سوَى بدايتِه. تجاهُل السؤال، هو الحلّ الوحيد.

بصوْت.ه الرتيب، كرَّر النقيب السؤال:

ـ أنت شيوعيّ؟

سمعت حولي همسات:

ـ لا يفتَح فَمه.

ـ يتَخيَّل أنّ.ه بطل.

ـ يظُنُّ أنه من الأذكياء.

وَجَّه النقيب كلامَه إلى أحد مرؤوسيه.

ـ يا حَسَن، هذا الفتَى يبدو أنّ.ه فقَد صوت.ه.

بَرَز الذي اسْمُه حَسَن من الجمْع، واتَّ.خذ مكانه أمامي. ل.م يكن وَجْهُه يعبِّر عن شيء. نظر إليَّ من دون أن يراني. وبطريقةٍ آلية، رفَع هراوتَه، واسْتدار حولي، وهوَى ب.ها على ظَهْري من أعلَى إلى أسْفَل قاصفةً تُمَزِّق لَحْمي. بتأثير الصدْمة تَرَنَّحْت. إنْثَنَت إحدَى رُكْبَتَيّ، قبل أن أسْتَرِدَّ توازني.

ـ أكَرِّر سؤالي: هل أنت شيوعيّ؟

كَزَزْتُ على أسناني، وأنا مُتَقَلِّصٌ، في انْتظار الضربة التالية. وهوت في ال.موضع نفسه تقريبًا، فاخْتَلَجْتُ فَرْط الأل.م. وبعدها ضربة ثالثة، فرابِعة.

ل.م تَنْتَظِم الضربات في وَقْعِها؛ فبَين الواحدة والأخرَى فاصلٌ يخْتَلِف عن سابِقه، مُوحٍ باحْت.مال تَوَقُّفِها، يُنْسيني حَذَري، قبْل أن أفاجأ بضربةٍ أخرَى، فيَعُمُّ تألّمُي بَدن.يَ ال.مُتَّقِد، ويتَشَتَّت ذهني.

بغتةً أحسست أنّني أنْزَلِق. بدا العذاب بلا نهاية. أفيُمكن أن أفْعَل شيئًا لوَقْفِه؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أتوجَد تَسْويةٌ مُمْكنة؟ أن أقول إنّني لست شيوعيًّا؟ سيُسَرُّ هؤلاء الوحوش بما أحْرَزوه من بَعْضِ انْتصارٍ عليّ. أسَيكْفيهم؟ لست أدْري. إنْخَلَعْت من داخِلي.

كفَى عذابًا.

عندئذ بدَّل النقيب اتِّجاهه:

ـ ترْفض أن تقول إنّك شيوعيّ. ليست لديك حتّى شجاعة التَمَسُّك بأفكارك. إذًا فلستَ رجُلًا! ما أنت؟ أنت امْرأة! إذًا قُلْها، وبصوْت عال! قُلْ: «أنا امْرأة»!

جاء صوت حَسَن، من خلفي:

ـ أجِب سيادة الضابط، قُلْ: أنا امْرأة!

إخْتَلَفَت الأمور ت.مامًا. ل.م تَعُدْ أيُّ تسْويةٍ ممكنة. مُبْتَغَى هؤلاء أن أخْنَع، أن أجْلِب أنا على نفْسي العار، ألّا أعودَ قادرًا على رؤية وجهي في مرآة، ألّا أعود شَطْرًا من ابْتِسامة نادية، ألّا يعود لي مَوْضِعٌ في الكَوْن. هم، على نحوٍ فجائيّ، أعادوا إل.يّ وعيي.

ـ أجِب سيادة الضابط!

ـ قُل: أنا امْرأة!

ـ قُل: أنا امْرأة!

مَزَّقَني الأل.م. لكنْ ل.م يعُدْ يُعميني. أضْحَيْت مسيطِرًا عليه بفضل ت.مسُّكي التامِّ بالثبات على قدمَيَّ حين تَهْوي الضربة التالية. إنْبَغَى أن أؤكِّد ل.هم أنّ.ه ما عاد في مقدورهم أن يمَسُّوني بأيِّ ضُرٍّ.

قال لِ.ي الضابطُ شيئًا ما. جاء صوْتُه من بعيد. كدت لا أسْمعُه. ل.م أعُ.دْ أعَلِّق أهميّة. حضَرَت نادية. ل.م يبْقَ لسواها حُضور. لقد عُدْت إلى مرفئي. عاوَدْت ملاقاة شجرتنا. صِرْت مَنِيعًا.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.